الدكتورة بنت الشاطئ

امرأة خاطئة

وقصص من القرية





سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة
في الخامس من كل شهر
رئيس التحرير : يوسف السباعي
المدير العام : حسن ايراني

العـــدد ١١

سبتمبر ١٩٥٨ – صفر ١٣٧٨ – أيلول ١٩٥٨

التحرير والادارة : ٥٣ شارع الجمهورية – القاهرة
ص · ب ٣٢٨ – القاهرة ت ٤٨٦٦٩

الاشتراكات : ١٠٠ قرش عن سنة (١٢ عددا) في داخل اقليم مصر والسودان وما يعادل ١٢٠ قرشا عن سنة في الأقطار العربية ·

التوزيع : في داخل اقليم مصر « الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع » ٥٣ شارع الجمهورية – القاهرة وفي الأقطار العربية : المكتب التجاري ببيروت ومكتبة المثنى (قاسم الرجب) ببغداد ·

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

الكتاب الفضي



سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

الناشر : الشركة العربية للطباعة والنشر

سيد العزبة

(قصة امرأة خاطئة)

هـذه القصـة كتبت عام ١٩٤٤
وأهـديت ((- الى مصر المصلحة
لعلها تحارب هذه الأوضـاع اللئيمة
التى جعلت من فتاة ريفية غرة ساذجة ،
امرأة خاطئة .))

الكتاب الأول



حديث الخاطئة

١

سعت الى تمشى على استحياء ، وأشباح النـــاس تتواثب حولها وترجمها فى حقد مجنون ، وأقاويلهم تمشى فى ركبها وتثير حولها السموم والأعاصير ...

ووقفت غير بعيد منى تنظر فى حيرة وخوف وتوسل ، ثم تشبثت بتابعتى «خضرة» تسألها ان كنت حقا قد أذنت لها بالمثول فى حضرتى ، وهى التى يرجمها الناس حيثما راحت ، ويمزقون عنها ثوبها ليلقوا عليها رداء الذل والعار ؟

أمنتها « خضرة » فى ابتسامة طيبة ، ثم أخذت بيدها وقدمتها الى ، وانسحبت لتهيىء لنا الشاى .

***

تطلعت اليها فى تفرس وفضول : كانت هذه المرأة موضوع السمر وحديث الحى كله ، وقد خلت أنى أعرفها مما ترامى الى من حديث القوم عنها ، فلما وقفت أمامى أنكرتها ، وافتقـــدت فيها عبثا تلك الصورة التى قدمها لى القوم عنها قبل أن أراها ...

لم أر أمامى المرأة العابثة التى بعد عهدها بالخير والطهر ، فاكتست ملامحها سمة الاثم وطابع الخطيئة ، ولم ألمح فيها المخلوقة الخطرة التى تقمصها الشيطان وأطلقها فى هذه المنطقة ، لتغوى كرام الناس ، وتلوث نقاءهم ، وتفتنهم عن الفضيلة ، ولم أبصر فيها ذلك الجمال الآثم الذى يتحدى الخير ويغرى بالشر ، ويسلط أضواءه الفاتنة على الريفيين البسطاء ، فيعشى عيونهم ويخدر أعصابهم ، ويخلقون ــ على غير هدى ــ بموكب الاثم وركب الشيطان ...

انما رأيت أمامى مخلوقة ضعيفة ، تعرض فى جسدها الهزيل وقامتها النحيلة وملامحها البائسة ، صورة موجعة للشقاء الانسانى ، وتثير بنظرتها الوديعة وابتسامتها الذابلة ، أصدق عواطف الرثاء والحزن والاشفاق .

* * *

وطال صمتنا وآن لنا أن نتكلم .

قلت لها فى رفق : اجلسى يا سميرة ...

قالت : أو تسمحين لمثلى أن تجلس فى حضرتك ؟

فابتسمت فى عطف وسألت : لم لا ؟

أجابت : وقد سمعت ما يقول الناس فى ؟

قلت : أجل ، لكنى لم أسمع كلمتك أنت فيما يقول هؤلاء الناس .

فتأملتنى برهة ثم قالت هامسة : وترضين أن تسمعى حديث مثلى ؟

قلت : بل أريد ...

فتحركت شفتاها كمن يتهيأ للحديث ، لكنها أمسكت بغتة وهزت رأسها قائلة : كلا يا سيدتى ، لن أتكلم !

قلت وأنا أتكلف عدم الاكتراث : أو تظنين أنك بهذا الصمت تخفين بعض أمرك ؟ انه ذائع فى الناس ، فما يضيرك لو عرفته أنا أيضا ؟ .

قالت وقد اشتد امتقاعها : بل ظننت يا سيدتى أنه لا يجوز لمثلى أن تؤذى بحديثها سمع فتاة كريمة طاهرة مثلك .

فضقت بها وقلت فى حدة : وما مثلك وما مثلى يا سميرة ؟ هل نحن الا بشر لنا خطايانا ؟ وهل فينا من يبرأ من ضعف بشريته وظلام مادته ؟ .

وحارت على شفتيها ابتسامة حزينة واهنة ثم قالت فى ذهول كأنها تحدث نفسها :

ـ ولكنى لست من البشر ! انما أنا جند الشيطان ! أنا ابنة الخطيئة والاثم ، ورمز الدنس والعار ، قد جهلت ما يعرف الناس عن الخير والطهر ، وتمرغت فى الأوحال وأوغلت فيها سعيدة راضية !

صحت بها فى ذعر أن تكف عن الحديث ، لكنها أطلقت ضحكة مخبولة ملتاثة ومضت تقول :

ـ عفوك يا سيدتى الآنسة ! أو ما أخبرتك أنه لا يجوز لمثلى أن تؤذى سمعك الطاهر بهذا الحديث ؟ سأكف عن الكلام ، وان كنت لم أذكر لك الا بعض ما يقول الناس ٠

قلت وأنا لا أكاد أملك نفسى من الحزن والأسى : لكنى لم أسألك أن تسمعينى كلام الناس ، انما طلبت اليك أن تتكلمى أنت ! ٠

فعادت تضحك فى بلاهة وخبال ! وتطلعت حواليها فى ذعر واشمئزاز ، ثم قالت فى بطء وكأنها تزن كل كلمة مما تقول :

انظرى يا سيدتى الآنسة : هؤلاء الناس من حولك ، يمشون مرفوعى الرأس فى عزة الأطهار وكرامة القديسين ، لا يلحق بهم عار ولا يثور حولهم غبار ، لا تمزقهم الأقاويل ولا تجرحهم الاشاعات ، كلهم عزيز ، وكلهم طاهر كريم ، وكلهم سليم العرض أبيض الثوب نقى السمعة ٠ هؤلاء القديسون يا سيدتى قد حكموا على ، فما كلمة مثلى بين كلام هؤلاء ؟ لقد قضى الأمر : حقت على لعنتهم ، وطردونى من حظيرة الانسانية ، وأعلنوا فيما بينهم أنى دنس ، وكل دنس منبوذ !

وأطرقت سميرة صامتة ، فتنفست فى عنف كأنى ألقى عن صدرى عبئا أثقله ، وملكنى رعب مفاجىء فبدا لى أن أنصرف عنها وأعفى

نفسى من مرارة حديثها الموجع ، لكنى ما لبثت أن قلت : ما زلت أرجوك أن تحدثينى عن نفسك يا تعسة !

قالت : وتصدقيننى ؟

فأجبت على الفور : أجل والله !

فجعلت سميرة تنظر الى ، وبدنها يختلج فى رعدة ظاهرة ، ثم جمعت ثيابها وجلست قريبا منى ، وقد ظهر عليهـا شعور الزهو وغمرها ذهول هنىء .. وراحت تنظر الى الدنيا من حولها فى اشتفاء ومباهاة : انها الآن تجلس مع فتاة يحترمها القوم ، وينزلونها من أنفسهم منزلة كريمة عزيزة .

ثم أدارت رأسها الى بعد قليل ، وبدأت تتكلم ، ووجها الشاحب يشرق بابتسامة راضية .

* * *

قالت (١) :

كل ما سمعت عنى يا سيدتى صحيح ، وكل ما يقوله الناس فى ، صادق ، وأنا نفسى أشعر أحيانا أننى لست منهم ، لكنى لست الشريرة العابثة التى يتمثلونها فى ويصورونها لك .

اننى مخلوقة ضعيفة تعسة ، وقد أثمت ، وحملت فى جسدى علامة الاثم وسرت بها بين هؤلاء الأطهار ، لم أحاول أن أهرب من بينهم ولم أفكر فى قتل أبنائى الذين هم ثمرة الاثم كما تفعل الخاطئات فى كل الدنيـــا . وانما حملتهم وحضنتهم ورعيتهم ، وهؤلاء هم

---

(١) هذا حديث (سميرة) بمعناه ، وبعض ألفاظه ، رويته عنها كما ألقته الى ، وحرصت على أن تكون عبـــارتى صادقة الأداء لكل ما قالت .

يا سيدتي .. أربعة أبناء لا يعرف الناس أباهم ، ولا يعنيني أن يعرفوه ، لكنني أمهم ، والناس يعرفون ذلك لا ريب ...

وقد ساءلت نفسي كثيرا : لماذا لم تراودني فكرة قتل أبنائي قبل أن يخرجوا الى النور ويراهم النـــاس ؟ لماذا لم أحاول أن أسكت صيحتهم الأولى ثم أهيل عليهم التراب كما تفعل الآثمات ؟ فكرت في ذلك كثيرا يا سيدتي وحملت نفسي عليه ، لأحمل الناس على شيء من حسن الرأي في ، وأسرق بعض عطفهم بالتكفير عن خطيئتي وقتل أبنائي بيدي ، لكنني لم أستطع يا سيدتي ، فما يكاد الجنين يتحرك في أحشائي حتى تشل حركته ارادتي وتلغي تفكيري في الناس ، فاذا خرج الى الوجود منبوذا من كل الناس ، بغيضا الى كل الناس ، حنوت عليه في أسى وحب ، وأبيت أن أكون عليه مع كل الناس ...

وقال القائلون : فاجرة أثيمة ، تحتضن ثمرة الخطيئة وتسير بها بيننا لا تخزيها الأمومة الآثمـــة ، فقالت نفسي : ان الأمومة لا تأثم ولا تشعر بخزي !

وهكذا حملت ذلك الوقر وسرت به ، والناس من ورائي يرجمونني بالحجارة ، ويهيلون على التراب .

ولم أكن أتحاشـــاهم أول الأمر : عـــذرتهم وغفرت لهم وقلت في نفسي : لعل احتمالي اياهم يشفيهم من حقدهم علي ، لكنهم ظلوا يلاحقونني . فلمـــا رأيتهم من ورائي ، تلمع في عيونهم نظرات الاشتفاء ، وتهز أبدانهم حمى النصر ، وتختلج جوارحهم بفرح حاقد مجنون ، عدوت أفر منهم قائلة : « أختفي حتى تهدأ الثورة وتسكن العاصفة » ، على أنهم أدركوني مرات كثيرة ، واستطاعوا في احداها أن يقتلوا أحد أبنائي وهو بعد جنين في أحشائي ، ثم وقفوا يرقصون حولي وأنا غارقة في دم الضحية المنكودة البريئة ...

وصمتت برهة تتأملنى ، ثم قالت فى رقة وضعف : أراك تهتزين يا سيدتى ، أو ما زلت مصرة على الاصغاء الى ؟

فأشرت اليها أن تمضى فى الحديث ، فائتمرت ومضت تقول :

كنت طفلة صغيرة حين ألحقت بخدمة سيد هذه الأرض · حملنى اليه أبى ذات مساء ، وألقانى تحت قدميه ثم أدار وجهه ومضى بعيدا اثر حديث موجز قصير ···

شيعته وقلبى يتمزق من فرط الحب والحنان ، حتى اذا ابتلعه الأفق تكلفت ابتسامة راضية : لقد مضى سعيدا بعد أن تخفف ! كان يحملنى على كاهله منذ شردت عنا أمى · وكنت أعرف أبى عبء ثقيل عليه ، وفكرت طويلا فى أن أريحه بالفرار ولكن الى أين ؟ لم أكن أعرف أن العالم يتجاوز دنيانا الصغيرة ، وكنـــا نعيش فى جزيرة منعزلة من الجزر العائمة على مياه النيل ، حيث ينفرج مجراه وتتشعب به السبل ·

وحمل أبى الى الدار ذات يوم امرأة عجوزا تدعى « نجية » كانت تتردد على الجزيرة من حين الى حين ، تحمل بعض البضائع ثم تعود حاملة بعض ما تنتج أرضنا من خضر وفاكهة ·

وكانت ضخمة الجسم خشنة البدن صارمة الملامح ، لها صوت رهيب كأنه عواء الذئاب ، ولهـــا عينـــان جاحظتان تقذفان الرعب فى القلوب ·

وأمرنى أبى يومئذ أن أقوم بخدمتها وألبى أوامرها ، اذ هى سيدة الدار وربة البيت · سألته وأين أمى ؟ فنظر الى غاضبا ، وبصقت المرأة فى وجهى وضحكت ضحكة عالية بغيضة أفزعتنى ، ثم دنت منى ووضعت يدها الضخمة على كتفى قائلة : تريدين أن تعرفى أين أمك ؟ حسنا ، فأنا أدلك عليها ·· وراحت تروى لى قصة غريبة ، فهمت

منها أن أمى اقترفت خطيئة لا تغتفر : أغوت أحد رعاة الأغنام ففر بها تحت جنح الليل ، وهاما على وجهيهما فى البلاد خوفا من القتل ٠

سألتها فى سذاجة الطفلة : ما شكل الفتى الذى فرت به أمى ؟ فحدقت فى ثم قامت فأحضرت مرآة كانت تحتفظ بها فى صندوقها ، وأدنتها من وجهى وقالت وهى تنظر الى أبى فى ابتسامة بغيضة : انظرى فى المرآة يا صغيرة ، تعرفى شكل الفتى الذى أغوته أمك !

فصاح أبى صيحة زلزلت البيت ، وحطم المرآة ، وأخذ يتفرس فى وهو ينتفض ويزفر كأن فى جوفه بركانا يضطرم ، ثم طردنى من حضرته وأنا لا أفهم شيئا مما حدث كله ٠ على أنى وعيت الدرس ، فأمسكت من تلك الليلة عن ذكر أمى فى حضرتهما ، حتى اذا خلوت الى نفسى فى الليل ، أخذت أنادى أمى وأتحدث الى طيفها ، وأشكو اليها ما ألقى من جفاء أبى وقسوة زوجه ٠

ومضت الأيام وأنا أخدم فى الدار : أفعـل ما أؤمر به ، وآكل ما يلقى الى ، ولا أتكلم حتى يؤذن لى ٠٠٠

وحدث ذات يوم أن أرسلتنى « العجوز » الى سوق احدى القرى البعيدة ، لأبيع كيلة من الحب وأشترى بثمنها مرآة وصابونا ، فمضيت مع جارة لنا وابتعت لها ما تريد ، ثم وقفت هناك على الشط ، ننتظر « المعدية » لتعبر بنا الى الجزيرة ٠

وطال انتظارنا فتشاغلنا بالحديث ٠

سألتنى الجارة عن حياتى فى دار أبى ، وكانت هذه أول مرة أجد فيها انسانا يهتم بأمرى ، وقد غمرتنى لذلك موجة من الحنان والأسى فأخفيت وجهى فى صدرها ورحت أبكى وأبكى حتى شبعت بكاء ٠٠ فلما استرحت شكوت لها بعض ما ألقى من امرأة أبى ، فأصغت الى فى حنو ثم قالت : رحم الله أمك !

سألت : هل ماتت أمى ؟

فأجابت : كلا يا صغيرتى لم تمت ، لكن من الأحياء من هم أحق بالرحمة ممن أراحهم الموت وغيبهم التراب ...

سألتها فى حنان : أو كنت تحبينها ؟

فأجابت على الفور : أجل يا ابنتى ، وأى الناس كره أمك ؟ كانت - رحمها الله - رقيقة كريمة طيبة .

فعجبت للأمر ! لم يقل لى أحد من قبل ان أمى كانت رقيقة طيبة ، وانما الذى سمعت أنها آثمة خاطئة .

وتشابه على الأمر ، وغلبنى الشوق والفضول ، وأحسست حاجة ملحة الى معرفة قصة أمى ، فسألت الجارة وأنا أتحاشى النظر اليها : كيف تكون أمى طيبة كريمة وقد فعلت ما فعلت ؟

فسألت الجارة بدورها : وماذا فعلت يا ابنتى ؟

قلت وأنا أتكلف الهدوء : غادرت زوجا وأغوت شابا فأفسدت حياة الاثنين .

سألتنى الجارة وقد اتسعت عيناها فى عجب وانكار : من الذين قالوا لك هذا ؟

أجبت : نجية زوجة أبى ، وكان هو واقفـــا يسمع فما كذب وما أنكر .

فوضعت المرأة يدها فوق كتفى فى رفق ، وقصت على قصة أمى :

« كلا يا فتاة ، ما كانت أمك امرأة سوء ، وما كانت آثمة بغيا . لقد احتملت من أبيك مالا يحتمل ، ثم تعرضت لها امرأة عجوز فاجرة هى نجية التى تزوجها أبوك من بعد ، فسامتها الخسف والهوان . وكان لها صاحب يتعاطى صناعة السحر ، فاستعانت به فى الكيد لأمك ، لكنها احتملت الكيد متجلدة صابرة ، وكلما تحدث اليها أهل

الحى فى التمرد على أبيك والاباق منه ، أبت الا أن تصمد وتحتمل ، من أجل طفلتها ، من أجلك أنت .

وضاقت المرأة بهذه الغريمة الصابرة المعتصمة بأمومتها ، فحاربتها بسلاح قذر دنىء : اتهمتهـــا فى شرفها وأبوك ساكت وأهل الحى منكرون ...

ثم أعلن أبوك زواجه منها ، وفرض على أمك أن تتخلى لها عن القاعة الوحيدة فى الدار ، وتترك لهـــا فراشها ، وتأوى مع طفلتها الى زريبة الدواب ، لتقوم على خدمة الزوجة الجديدة .

وسمع بنو عمها بالأمر ، فثار لها ثائر منهم ، وجاء فانتزعها من هذا الجحيم ، وأبوك يشيعهما بالسباب والفحشاء .. » .

* * *

لم تكد جارتنا تفرغ من قصـــة أمى حتى رأينا القارب يندفع نحونا ، فوثبنا اليه وهو يخرج الى الغمر وينطلق عائدا الى الجزيرة ، وكانت جارتى تقف الى جانبى مواســـية مشجعة ، على أنى لم أكن فى حاجة الى المواســـاة · اذ كانت فرحتى بأمى تشغلنى عن حزنى عليهـــا .. فرحت اذ عرفت أنها طيبة كريمة ، وليست آثمة فاجرة كما زعموا ...

* * *

وصلت الى الدار مع مغرب الشمس ، مكدودة متعبة ، قد أنهكنى القلق والجوع والخوف والاعياء ·· فألقيت ما أحمل الى زوجة أبى ، وتوسلت اليها أن تأتينى بطعام آكله · فصاحت وهى تضحك ضحكة نائحة معولة : تأكلين ؟ خذى ...

وانهالت على ضربا ولكما وعضا ، وأنا بين يديها أتلوى من فر - الألم ، وجاءت جارة لنا فأنقذتنى من يديها ومضت بى الى دارها وهى تسألنى : لم لا أشكو الى أبى ما ألقى ؟ فنهضت قائلة : لقد غاب ذلك عنى ... سأفعل !

وهناك في الدار ، سمع أبي شكواي ساكنا ، حتى اذا فرغت ارتميت بين يديه أنشج من جهد واعياء ، فأفزعتني ضربات قاسيات من عصاه مزقت لحمي وأسالت دمي ، ومن تلك الليلة ، لم أعد أشكو الى أبي أو أحدثه بشيء عما ألقى من زوجه ٠

وعشت في الدار : غريبة منبوذة ، حتى كان يوم حملني فيه أبي الى سيد هذه الأرض ومضى عني ، ففرحت له وان آلمني فراق جزيرتي وصواحبي ، وأوجعني أن يجفوني أبي وأنا أحبه أصدق الحب ...

ومن ذلك الحين ، لم أعد أرى أبي الا مع مولد كل شهر جديد ، يأتي ليأخذ أجرى من وكيل السيد ، ويسألني : « كيف أنت ؟ » ثم يمضي عني قبل أن يسمع الجواب ٠

وغلبني الحنين يوما الى ملاعب الصبا ، فتشبثت بأبي حين جاء ، ورحت أقبله في نهم وانفعال ، ثم انثنيت أسأله عن فراخي وصندوقي وصواحبي وجزيرتي ، فأجاب في خشونة صارمة :

« لا تفكري في شيء من هذا ، وعليك أن ترضى سادتك ليحتفظوا بك ، فليس لك عند غيرهم مكان ! » ٠

ثم ولى ٠٠٠ وابتلعـــه الأفق وأنا واقفة على الســـياج في ذهول وهمود ٠٠٠

وكنت أرقب مولد الهلال في شوق غلاب ، حتى اذا حان موعده ، تسللت خفية الى السياج وحدقت في الطريق الممتدة الى غير نهاية ، حيث يلوح لي شبح أبي يتضاءل وراء الأفق الى أن يبتلعه الظلام ، وصدى صوته يملأ أسماع الليل :

« عليك أن ترضى سادتك ليحتفظوا بك ، فليس لك عند غيرهم مكان ٠٠ » ٠

وكانت تلك الرحلة الشهرية ، أعز ما أحرص عليه في طفولتي المبكرة اذ كانت كل ما بقي لي من ماضيّ ...

انها تروي قصة فرار أمي ، وجفـــاء أبي ، وضيق الدار بي ، وتتحدث عن قصتي ، وقصة هؤلاء الأبناء ٠٠٠

الكتاب الثاني

٨



سيد الأرض

٣

استقبلت الحياة الجديدة وليس معى من دروس الحياة ، ووصايا الأهل ، وتعاليم الدين والدنيا ، غير وصية أبى .. كانت هى الدرس الوحيد الذى تلقيته لأندمج فى العالم الجديد ، والزاد القليل الذى تزودت به للرحلة الطويلة المجهولة ، والسلاح الضعيف الذى حملته للنضال فى المعترك الكبير ..

كنت فى ذلك الحين أستقبل العام الثالث عشر من عمرى ، قضيت منها عاما فى الدنيا الجديدة ، لا أنفك أتسلل كل شهر الى السياج لأرقب مولد الهلال وأرى شبح أبى المتضائل ، وأصغى الى وصيته العتيدة ، ثم أعود الى فراشى وأخلو لحساب نفسى فأتساءل فى حزن وأمل ، وقلق وارتياب :

« ترى هل أرضيت سـادتى واستقرت بى الحياة فى هذه الأرض ؟ » .

ولم أكن أدرى بم أجيب ، فقد كان يخيل الى أن هؤلاء السادة لا يشعرون بوجودى ، ولا يحسون الجهد الأليم الذى أبذله لأظفر برضائهم ..

كنت أعمل فى دار الخدمة الملحقة بالقصر ، ولم يكن ما بيننا وبين القصر بعيدا ، الا أننى لم أظفر بشرف الخدمة فيه ، ولم أعرف عنه ـ بعد عام طويل ـ الا صورة غامضة أكثر ألوانها من أحاديث الخادمات الكبيرات اللائى يترددن على القصر الكبير ...

وكان عملى فى دار الخدمة يستغرق النهار كله ، حتى اذا جن الليل ، أويت الى غرفة كبيرة فى سطح الدار أعدت لنوم الخادمات .

ولعلي كنت أسبقهن الى النوم وأكثرهن حظا منه ، فلم تكن لأحد الى حاجة بعد أن يجهز طعام العشاء ، لذلك تعودت أن أنصرف الى فراشى قبل عودة زميلاتى من القصر ٠

وما كنت أعرف شيئا عن عملهن هناك وساعة عودتهن للنوم ، وأظننى فكرت فى ذلك طويلا ثم تركت التفكير حين عييت به ٠

وحدث ذات مساء أن مضيت فى رحلتى الشهرية لأشهد مطلع الهلال الوليد ، فاذا السحب متكاثفة تحت السماء كأنها جبال وهضاب قد تعلقت بين السماء والأرض ٠

جعلت أفتش عن الهلال ضاربة فى ذلك التيه المعلق فى الفضاء ، ثم بدا لى أن أغير موضعي ففعلت ، لكن هضاب السحب كانت تواجهنى حيثما نظرت ، وتحجب عنى الهلال ٠

وعز على أن أمضى قبل أن أراه ٠٠٠ كان معنى ذلك أن ألبث شهرا طويلا لا ألقى الطيف ولا أسمع الصوت ٠ وبدت لى الأيام الثلاثون فارغة باهتة قاسية ، كأنها عمر طويل فى تيه الحياة ٠

نظرت الى السماء ضارعة متوسلة ، فخيل الى فى تلك الساعة الرهيبة ــ حيث تبدو الأوهام حقائق والأشباح أشخاصا ــ أن قوة خفية غير منظورة ، تحملنى وترتفع بى مصعدة فى السماء وهناك فى الأفق الأعلى ، انبثق النور فجأة أمامى ، ثم ما زال يتجمع حتى استوى قوسا رفيعا مضيئا فى عتمة المساء !!

وافرحتاه ! انه الهلال الوليد ...

وعلى ضوئه الهادىء الضعيف ، لمحت طيف أبى متضائلا خلف الغيوم ، وسمعت صوته ينبعث من أعماق الوادى حادا رفيعا :

« عليك أن ترضى سادتك ليحتفظوا بك ، فليس لك عند غيرهم مكان » ٠

وذاب الشبح ، وخفت الصوت ، وأحسست أن القوة التى عرجت بى الى السماء تخلت عنى ، فهبطت الى الأرض متعبة مجهدة ، قد أنهكتنى الرحلة وأعيانى الاسراء ...

حملت نفسى الى فراشى وحاولت أن أنام ، لكن التفكير فى رحلة المساء ذاد عنى النوم ، فأمضيت جزءا من الليل مسهدة لا أنام .

وتناهت الى أذنى أصوات آتية من بعيد ، معلنة أن القوم لم يناموا بعد ، فأصغيت اليها وأنا مشوقة أرتجف ، وقد طاف برأسى أن القوم فى جنة من الفرح . كانت ضحكاتهم مشرقة مدوية عالية الرنين ، تهز الحقول النائمة وتوقظ الكون الهاجع .

قلت فى نفسى : لعلها حفلة من حفلات القصر التى سمعت عنها وان لم أرها . وكان الذى سمعته يشبه فى غرابته وفخامته ما يروى عن القصور المسحورة وجنان الخلد ، فشاقنى أن أشهد تلك الحفلة لأرى موكب الحور يخطو الى الحفل فى أبهة رائعة ، وقد ارتدين ثيابا من نسيج الذهب ، وعلى رءوسهن الجميلة تيجـــان مرصعة بالماس والزمرد والياقوت . وهناك يجلسن على الأرائك ، وتحت أقدامهن اماء يحملن المباخر والمراوح ، وبين أيديهن عبيد يقدمون شرابا سحريا عجيبا فى قوارير من الذهب والفضة ، ثم يأتى موكب الأمراء فيختار كل منهم ملكته ، ويحملها بين ذراعيه ثم يمضى بها الى الفردوس الذى لا يباح دخوله لغير الأمراء والأميرات .

أرهقنى الشوق ، وبدأت أقاوم فى نفسى رغبة طاغية ملحة ، كانت تدفعنى الى التسلل الى القصر وشهود حفلته . ثم وضعت أصابعى فى أذنى حتى لا يصل الى مسمعى نداء القصر ، حافلا بأقسى ألوان الفتنة والاغراء ، الى أن أدركتنى رحمة الله ، فهمت فى وادى الخيال ، وشغلت عن الرغبة فى المضى الى القصر ، بتخيل عجائبه وتمثل ما فيه .

وصحوت بغتة من أحلامى على صوت الخادمات الثلاث يقترب

من الغرفة ، وكانت ضجة القصر قد سكنت ولم يبق منها الا هذا الصوت يدنو منى مختلطا مبهما • فجمعت ما أملك من وعى وانتباه ، وتمنيت فى تلك اللحظة لو أن احداهن أضاءت المصباح ، لأشهد آثار النعمة والفرح فى وجوههن ، وأرى ماذا فعلت فيهن الحفلة الساحرة وماذا غيرت منهن ! •

واستجاب القدر لدعائى ففتحت احداهن النافذة ، فاندفعت منها موجة عنيفة من هواء بارد قارس انتفض بدنى منه ، ثم رأيت نورا فضيا ينبثق من الخارج فى هدوء ويملأ المكان ...

انه نور الفجر ! اذن فقد أمضيت ليلتى ساهرة كأهل القصر !

أخرجت رأسى خلسة من تحت الغطاء ، وتفرست فى وجوه الفتيات ، فلم أستطع أن أتبين ملامحهن ، اذ كان النور لا يزال فاترا باهتا ، لكنى سمعت اثنتين منهن تتحدثان فى غيظ مكبوت ، على حين بقيت الثالثة عند النافذة تحدق فى الليل صامتة شاردة ، كأنها لا تعى شيئا مما حولها •

لم أصدق أذنى أول الأمر ، فقد كان حديث الفتاتين غريبا غير مألوف ، لكنى ما لبثت أن استيقنت من يقظتى ، وأنا أراهما تخطوان الى النافذة وتهزان الفتاة الصامتة فى ثورة جامحة • وارتفع صوتهما يعلن أنهما تعرفان من أمرها ما تخفى : تعرفان أنها أمضت ساعة مع السيد ، وشربت لديه من الشراب العجيب ، وتعرفان أن هذا العقد البراق الذى كانت تدل به عليهما هو هدية من السيد الشاب ، فهل تجرؤ على الانكار ؟؟

لم تجب الفتاة ، وعادت الزميلتان تتحدثان ، وفى صوتهما نبرات غيرة قاسية • قالت الأولى : « ومع ذلك فلا تزعمى لنفسك أنك أفضل منا ، ولا تتوهمى أنك تمتازين عنا ، فلعل من بيننا من تفوقك جمال طلعة وبياض لون وحسن صوت ، ففيم التعالى وفيم الغرور ؟ »

وأردفت الثانية : لم لا تتكبر وتتعالى ؟ أو ليست فتاته المختارة وصاحبته المقربة ؟ أو لا يبتسم لها حين تحضر ، ويسأل عنها حين تغيب ؟ أو لا يحضر لها من (مصر) العقود الجميلة والعطور الغالية ؟ أو لا يدعوها للجلوس معه فى غرفته ويملأ يديها بالفاكهة والحلوى ؟

فتنهدت الأولى وقالت فى مرارة : أجل ... ومع هذا فلا زلت أقول : انها ليست أفضل منا ولا أكثرنا حظا من الجمال .

فردت صاحبتها : لعلك لا تنكرين أنها أمهرنا جميعا . لقد رحنا كلنا نطلب صيدا ففازت هى به دوننا .

فهزت الأولى رأسها وقالت : ليست مهارة منها ، انما هى الحظوظ العمياء ... على أن الأمر لا يعنينى كثيرا ، فما كنت أطلب صيدا ، ولو أردت أن أظفر باعجاب السيد الشاب لما أعجزنى الأمر ، وهل كان صعبا أن أستحم كل يوم ، وأمشط شعرى بالدهن المعطر ، ثم أعرض للسيد وأتحبب اليه ؟

وانتهى حديثهما بغتة ، ودلفتا الى الفراش ، على حين بقيت الثالثة حيث كانت عند النافذة ، تحدق فى الفضاء شاردة كأن الأمر لا يعنيها ، أو كأنها قد غابت عن المكان ...

وبقيت أنا كذلك فى فراشى مسهدة ، أفكر فى الأمور الغريبة التى سمعتها ، وأعرض عشرات الأسئلة ولا جواب !

يا لله !؟ كيف يمكن هذا ؟ كيف يمكن أن تظفر خادمة بحب السيد الشاب ؟

كيف يمكن أن يتنازل فيبتسم لها اذا حضرت ويسأل عنها اذا غابت ويدعوها الى غرفته فيملأ يديها بالفاكهة والحلوى ؟

وغلبنى النعاس ، فنمت نوما مضطربا ، وجرؤت أحلامى فحملتنى الى الغرفة المسحورة وسعت الى بالسيد الشاب ، فأحاط عنقى بعقد براق ، وملأ يدى بالحلوى !

***

وسارت عجلة الزمن ، وطوى الماضى فى جوفه شهرا كاملا وآن أوان مولد الهلال ، فمضيت الى السياج أرقب مطلعه ، حتى اذا بزغ حدقت فيه واجمة ، ثم رأيت الطيف وسمعت صوته ، ولشد ما دهشت حين تبينت فيـــه ـ لأول مرة ـ رنة غضب وانذار ! ولمـــا سألت سؤالى المعهود : ترى هل أرضيت سادتى ؟ عرفت الجواب • اننى لم أدرك ذلك ، بل ولم أفعل شيئا لأدركه !

قلت فى ذلة وانكسار : ليس الذنب ذنبى ، فرضاء السادة أمر عزيز المنال علينا معشر الخادمات !

هنالك رأيت شبح أبى يتحرك نحوى فى الظلام ، ويجيب فى غضب وتهكم : ومع ذلك فقد نالته احدى الخادمات من أمثالك !

فتملكنى الذعر ، وعدوت الى الدار ، والشبح يطاردنى ، حتى اذا ارتميت على فراشى مضيت أستعيد ما حدث وأفكر فيه • ثم رأيتنى ألتمس العذر لنفسى وأقول : لم يكن ذنبى لا أرى السيد ، لقد فرض على أن أعمل فى دار الخدمة ولم يسمح لى بزيارة القصر ، فماذا عسانى فاعلة لأرضى السيد ؟ •

لكننى ذكرت كلمة كبيرة الخادمات فى الليلة المشهودة عقب حفلة القصر :

« ولو أردت أن أظفر باعجاب السيد الشاب لما أعجزنى الأمر ، وهل كان صعبا أن أستحم كل يوم بالصابون (الممسك) ، وأمشط شعرى بالدهن المعطر ، ثم أعرض للسيد وأتودد اليه ؟! » •

فارتجف بدنى : اننى زعمت الأمر مستحيلا ولكنه ليس كذلك •• لقد أدركته فتاة منا معشر الخادمات ! » •

وأغمضت عينى وقد اعتزمت أمرا •••

* * *

وأصبح الصباح فاذا بى أتسلل من المطبخ وأمضى لأغتسل ، ثم رحت ألاحق الفتـــاة السعيدة المحظية وأراقبهـــا ، لا تفوتنى حركة من حركاتها ، حتى اذا جن على الليل ، أسرعت الى فراشى وأخذت أعيد على نفسى ما رأيت من حركات « زهرة » واشارتها ، ولفتة رأسها ، ونظام شعرها ، وطريقة مشيتها وجلستها وحديثها !

ووجدتنى يوما أقف الى جوار نافذة مطلة على فناء القصر ، وقد علقت عيناى ببابه كأنى موكلة به ، فلما نوديت الى العمل لبيت النداء فى شىء من الضيق أخذ يزداد حتى كرهت العمل ، ووددت لو بقيت الى جوار النافذة لأرى السيد ، وأعرف موعد انصرافه من القصر وعودته اليه .

وبدأ الخدم يضيقون بى ، وراح كبيرهم ينهرنى كلمـــا رآنى منصرفة عن العمل الى النافذة ، وهددنى يوما برفع أمرى الى القصر فجزعت وارتجفت ، وتخليت عن النـــافذة ، واليـــأس يغزو قلبى الصغير .

ثم بدا لى يوما أن أتشاغل بتهيئة نفسى للساعة الموعودة ، فترقبت يوما حضور « أم سليمان » بائعة البيض ، وكانت تظهر عطفا على ، ثم سألتها ـ فى غفلة من الرقباء ـ ان كانت تستطيع أن تحضر لى قطعة من الصابون (الممسك) وبعض الدهن المعطر ؟ فطلبت ثلاثة قروش ثمنا ، ولم يكن معى سوى ثمانية عشر مليما ادخرتها فى عامين طويلين ، فحملتها لها وتوسلت اليهـــا أن تحضر لى طلبتى وتستمهل البائعة فى بقية الثمن ، لكنها ضحكت وقالت مشفقة : ان البائعة لا تعطى بضاعتها بالأجل الا لزبائنها ولست منهم !

وتحركت لأنصرف وقد غشينى الهم ، فأمسكت بى « أم سليمان » وعادت تقول :

« تستطيعين أن تدفعى بقيـــة الثمن منديلا جديدا أو دجاجة صغيرة . » قلت لها : ولكننى لا أملك شيئا مما تذكرين ...

قالت : فادخرى اذن بعض طعامك من الخبز والبيض وأنا أدفع نظيره بقيمة الثمن .

قلت فى حيرة : ولكنا ـ معشر الخدم ـ لا نأكل بيضا سليما ، انما تدفع الينا بقايا طعام القصر ، ويندر أن يكون فيها ما يصلح للبيع ، على أن كبار الخدم يستأثرون بخير ما فى هــذه البقايا ، ويتركون لى ولأمثالى كسرات من الخبز وفضلات من الخضر .

فصمتت برهة تفكر ، ثم دنت منى تقول هامسة : لكنك تستطيعين أن تأخذى من المطبخ بعض البيض أو الخبز دون أن يراك أحد ..

فارتجفت ، لا عن اشمئزاز من السرقة ، ولكن عن فزع من أن يرانى أحد فيقذف بى الى الطريق !

كذلك ارتجفت « أم سليمان » وقد خشيت أن يفتضح أمرنا ، فطلبت الى ـ وهى تحدق فى عينى ـ أن أكتم ما كان بيننا ، ثم جمعت نفسها ومضت ...

* * *

مضت ، وبقى عرضها المغرى يلاحقنى ، وقد تجاهلته أول الأمر ، لكن الصوت كان يعلو رويدا رويدا حتى ملأ أذنى ، وكلما تشـاغلت عنه زاد قوة واصرارا . وبينا أنا أجاهد لأخلص من اغرائه حملت الطعام يوما الى حظيرة الدواجن ، فألفيت هناك بيضات خمسا تجسد لى فى كل منها شبح العجوز البائعة ، تهتف بى أن أختلسها لأحصل بثمنهــا على ما أريد . فزعت من هول الاغراء واعتصمت بخوفى من الفضيحة ، وصحت بالشبح فى قوة : اليك عنى أيتهــا العجوز الشريرة . فلن اختلس البيض لئلا يقذفوا بى الى الطريق . وليس لى عند غيرهم مكان .

ولفرط دهشتى ، اختفى شبح العجوز . فهدأت أنفاسى ونظرت

الى البيضات الخمس من جديد ، فتجسد لى فى كل منها شبح جميل حبيب ! كان شبح السيد الشاب ·

عبثا حاولت أن أنصرف عنه ! أغمضت عينى فوجدته يرتسم دون جفنى ، وعدوت الى الباب فألفيته يقف دونه ، وهممت بالصياح فاحتبس صوتى كأن يدا هائلة تسد فمى ، فأرخيت يدى فى استسلام ووقفت أصغى لاهثـــة الى الأصوات التى كانت تملأ الحظيرة وتدوى فى قلبى وأذنى :

« اعملى على ارضاء سادتك ليحتفظوا بك ، فليس لك عند غيرهم مكان . . .

« انك لم تفعلى شــــيئا ــ أى شىء ــ لتدركى ما أدركته فتـــاة من أمثالك . . .

« لا تزعمى أن الأمر مستحيل فهى خادمة مثلك ، ومع‌ذلك فالسيد يتنازل ويدعوها الى غرفته ، ويملأ يديها بالحلوى والفاكهة . . .

« وهل من الصعب أن تغتسلى بالصابون الممسك ، وتضمخى شعرك بالدهن المعطر ، ثم تعرضى للسيد وتتقربى اليه ؟ » ·

صحت فى يأس وعزم معا : كفى ··· وأخذت البيضات الخمس ، وأخفيتها تحت ثيابى ثم انصرفت زائغة البصر مرتعدة الأوصال ، والأشباح تطاردنى وتكاد تمسك بثيابى ·

ومضت ساعات رهيبة ، وكل دقيقة تذيب قواى : كلما ارتفع صوت فى الدار خلته يطلبنى ، وكلما نظرت الى عين حسبتها تتهمنى ، وكلما اضطربت البيضات تحت ثيابى سمعت لها صوتا رهيبا كأنه يدل على ، وكلما مست جسدى أحسست نارا محرقة تشوى لحمى ··

ورأيت الطاهى يستعد لتهيئة الطعام ويطلب بعض البيض ، فغلب صبرى ونفد احتمالى ، وعدوت أرتجف الى المرحاض ، فأودعته

الكنز الغالى الذى كان جـديرا بأن يقربنى الى السيد ، وتنفست فى ارتياح وحزن ، حين غادرته خفيفة قد تخلصت من الحمل الخطر !

ورجعت الى المطبخ أنتظر ما يكون ، ولكن شيئا لم يكن ! أحضر البيض ، وجهز الطعام ، وما من سائل يفتقد البيض الذى أضعته .

ومضى النهار ، وتبعه الليل ، ثم تلاه نهار جديد ولا أحد يسأل عن البيض أو يفكر فيه !

وظهر لى أن القوم لم يفطنوا لمـا حدث ، فاستبد بى الحزن ، على أن حزنى لم يطل : لئن كان الكنز قد ضاع ، فان سكوت القوم كان يفسح أمامى أفق الأمل ! .

وهكذا اعتزمت أن أعيد التجربة !

وقد فعلت . . . فعلتها وأنا أقوى عزما وأوفر اطمئنانا ، وكان عدد البيضات التى اختلستها فى المرة الثانية أربعا ، رضيت بها على أن أعاود الكرة من جـديد ، حتى أتممهـا اثنتى عشرة بيضـة كما طلبت « أم سليمان » .

فعلتها ، وحملت البيضات فى ثيابى ، ورحت أعمل متكلفة الهدوء والاطمئنان ، لكنى فوجئت باثنتين من الخادمات تتبادلان السباب ، وكل منهما تتهم زميلتها بسرقة البيض خفية من غير أن تشرك صاحبتها فيه ! فر الدم من وجهى وتخاذلت قدماى فاستندت الى الجدار خشية أن أنهار ، وأنا أعلم أن نظرة واحدة منهما الى ، كافية لتعلن عن فضيحتى . ولكنهما لم تلقيـا نظرة الى ، بل لعلهما لم تشعرا بوجودى ، حتى انصرفتا عنى وكل منهما تهدد الأخرى بالاستيلاء على البيض دونها .

فابتسمت ابتسـامة شاحبة ، لقد كان معنى هذا التهديد أننى أستطيع ـ بشىء من الحرص والمهارة ـ أن أختلس ما أشاء من البيض ، بعيدة عن الشبهات .

وخيل الى فى تلك اللحظة أن الأقدار تقف من ورائى وتدفعنى

الى السير فى الطريق الخفى الذى بدأته بالسرقة ، وفى عزمى أن أختمه بارضاء السيد !

ولما دفعت البيضات الى « أم سليمان » لم أشعر برجفة الخجل والعار تهز بدنى ، ولم تخفنى النظرة الماكرة التى حدجتنى بها المرأة العجوز وهى تتناول الحمل الرهيب من يدى ، وكأنى حين ألقيت هذا الحمل قد تخلصت من اثمه وعاره !!

* * *

كان ذلك أول عهدى بالسرقة ، لكن فرحتى بما سيكون ، لم تدع لى فرصة للتفكير فيما كان ! حتى اذا وليت وجهى شطر الدار خفيفة الحمل فارغة اليدين ، بدأت أفيق من النشوة قليلا قليلا ، ودب فى قلبى شعور خفى مبهم متناقض ، من الخجل والندم والفرح جميعا .

ولما أويت الى فراشى ، همت نفسى بمحاسبتى على ما فعلت فأسكتها صوت الخادمتين آتيا من بعيد .. كانتا تتنازعان وتختصمان فى البيض ، فابتسمت فى خبث وتهكم وأغمضت عينى لأنام !

وحان موعد الهلال فمضيت أستقبله فرحة متهللة ، حتى اذا ظهر الشبح ، تلفت حوالى أطمئن الى خلو المكان ، ثم قلت هامسة وعيناى تدمعان من شدة الفرح :

اننى أخيرا فعلت شيئا لأدرك رضا السيد ! .

وانتظرت فى تلك اللحظة أن يبتسم لى الهلال ويحنو على الطيف ، لكن الهلال ذاب فى السحب خابيا شاحبا ، والشبح غاب وراء الأفق صامتا جامدا ، وبقيت وحدى أفكر فى هذا الذى فعلت !

وثار فى أعماقى قلق غامض ما زال يزداد حتى صار لونا من الذعر ، فأدركت — لأول مرة — اثم ما اقترفت . لقد سعيت وراء رضاء السادة واستطعت أن أفعل شيئا لأدركه ، ولكن بأى ثمن ؟ اننى سرقت !

وسمعت صوتا يطاردنى صائحا « السارقة » فلم أعد ولم أفر .

وفيم العدو وعلام الفرار ؟ ان الصوت لم يكن آتيا من ورائى حتى أفر منه ، وانما كان منبعثا من نفسى .. من داخلى .. من كيانى !

فتحت فمى لآخذ جرعة من هواء ، ثم تطلعت الى السماء ، وعاهدتها أن أكف عن السرقة . ووعدتها أن تكون رحلتى التالية لشهود مولد الهلال ، رحلة فتاة طاهرة لا تسرق ...

وكأن هذا العهد أراحنى قليلا ، فرقدت فى فراشى حزينة متعبة وقد ألغى الندم بعض خجلى وبعض رعبى ، ورانت السكينة على ، كما رانت على الكون من حولى .

* * *

وزعمت لنفسى حين أصبح الصبح أنى فتاة جديدة ، تبدأ عهدا جديدا لا تلوثه الجريمة ، ثم أردت أن أمتحن نفسى فناديت ارادتى وذهبت الى حظيرة الدجاج حيث تعرضت لاغراء البيض ، لكنى أدرت ظهرى فى شجاعة من غير أن ألمس البيض المحرم ، وغادرت الحظيرة مزهوة بفضيلتى مطمئنة الى ارادتى .

على أن تلك الارادة ما لبثت أن انهارت بعد ثلاثة أيام ، حين ألقت الى « أم سليمان » لفافة قذرة بالية من قماش أسود ، دون أن تنطق بكلمة واحدة .

نظرت الىّ ، ففهمت عنهـــا وأجبتها بنظرة خاطفة ، ثم أسرعت الى المرحاض وأغلقت الباب ، وأقبلت على اللفافة أفتحها فى حرص ، فاذا فيها قطعة من (الساتلايت) ، وعلبة من علب (البرشام) فيها شيء من الدهن المعطر !

وتشممت الرائحة فى شراهة ونهم ، فملأ العطر أنفى ودماغى وصدرى ، وغشينى منه شبه دوار ! لكنى تماسكت وسرت فى غيبوبة الى النافذة ، حيث رنوت الى القصر ، وفى وهمى أننى أحمل معى شيئا من رائحة السيد ، وأننى ظفرت بمفتاح الباب الأول من الأبواب الموصدة دونه !

ولما خطر لى أن السماء سوف تحاسبنى على ما اقترفت ، ذدت هذا الخاطر عنى وهتفت فى حرارة ويقين :

« اننى لم أسرق السادة ، وانما سرقت ما كانت الخادمتان تنويان أن تسرقاه ! فأى بأس فى أن أظفر دونهما بالغنيمة ؟ انهما تستأثران بخير بقايا المائدة ، وتأخذان ما تريدان فى جرأة ليست لى ، وتقبض الواحدة منهما ريالين اثنين فى أول كل شهر ، فتستطيع أن تشترى ما تشاء ، على حين لا يدع لى أبى مليما واحدا أشترى به ما أنا فى حاجة اليه ، لأظفر برضا السيد ! » .

وكان ذلك آخر عهدى بالصراع ، فقد خيل الى منذ تلك الليلة أننى أحق الخادمات بالبيض لأنى أشدهن احتياجا اليه ، وبدأت أحرص على أن أستأثر به وأسبق اليه ، فاذا سبقتنى خادمة سواى ، أنكرت ذلك منها ونقمته عليها ، وأحسست أنها تسرقنى وتغتصب ما أراه حقا لى !

وهكذا انقلبت المسألة وأخذت وضعا آخر : كان اختلاس البيض سرقة واغتصابا ، فأمسى حقا لى وحدى ، من سلبنى اياه فهو غاصب !

ان حاجتى اليه هى التى قررت حقى فيه ..

أما صاحبتاى فلا حاجة لهما الى شىء منه . انهما فى غنى عن التودد الى السيد والظفر بحبه ، وما كان ذلك ليعجزهما لو أرادتاه . بهذا صرحتا أمامى فى غير اكتراث ، فلأستأثر ، دونهما بالبيض ، لأن الأمر بالنسبة الى ، أمر حياة أو موت .

أو لم يقل أبى : « عليك أن ترضى سادتك ليحتفظوا بك ، فليس لك عند غيرهم مكان ؟! »

* * *

لم يكن عسيرا على أن أخفى الصابون والدهن المعطر . أهمنى ذلك فى الليلة الأولى حتى خشيت أن يفتضح الأمر ، اذ كانت الرائحة العطرة

تدل على ما أحمل ، ثم ما لبثت أن استرحت حين أودعت كنزى عند « أم سليمان » وكانت تقيم قريبـــا منى فى الأكواخ المتاخمة لدار الخدمة ٠

وشغلت بالتفكير فى الخطوة التالية ، فان مجرد امتلاك الصابون المسك والدهن المعطر لم يكن غايتى ، انما هما وسيلة الى غاية أبعد ، فكيف أنتفع بهما لأدرك تلك الغاية ؟

ونفضت بعض أمرى الى « أم سليمان » فسألتنى فى خبث : « وما قصدك بهذا ؟ » أجبتها : لا شىء ! انما هى وصية أمى لى بالنظافة والتأنق ، عندما ودعتنى فى رحلتى الى هذه الأرض ٠

لم يبد على « أم سليمان » أنها اقتنعت ، فعادت تسأل وهى تنظر فى عينى : « وأين أمك منك ؟ ما أراها قد زارتك يوما وما أراك رحلت عنا مرة لزيارتها ٠ »

قلت وأنا أغالب دمعى : ولكن أبى يحضر ليرانى ، وهو يذكرنى بوصيتها ، ويحمل اليها أخبارى ٠

فهزت المرأة رأسها فى شك وارتياب ، ثم قادتنى الى القاعة ، ونزعت عنى ثيابى ، وغسلتنى بالصابون المعطر ، وضمخت شعرى بالطيب ، ثم أرسلتنى من قاعتها وهى تقول فى ابتسامة ماكرة :

أقسم أنك تخفين أمرا ، وما على مثلى تخفى هذه الأمور !

* * *

رجعت الى الدار وأنا أحس أن مخلوقة جـــديدة قد حلت فى مخلوقة نظيفة معطرة ، جديرة بأن تلفت نظر الســـيد كما فعلت الأخرى ٠

على أن أحلامى تشردت حين قاربت باب الدار ، وحلت محلها يقظة مؤلمة أدركت معها أنه يستحيل على أن القى الخادمات فى هيئتى الجديدة

وأشفقت على نفسى من سخرهن وعبثهن ، فوقفت بالباب حائرة لا أدرى ماذا أصنع .

وعلت ضجة فى الدار بعد قليل فانتبهت . واذا الخادمات يسرعن الى القصر لأن السيد عاد من المدينة قبل موعده ، وفى صحبته ضيوف له .

خطرت لى فكرة طارئة ، فأسرعت وراء الخادمات ودخلت القصر وقلبى يرتعدخوفا وفزعا ، حتى اذا جاوزت الباب وأشرفت على البهو ، نسيت خوفى وفزعى ، وأخذتأنظر حوالى فىتطلع وحيرة واستغراب .

كان البهو رحبا واسعا ، قد غطيت أكثر جدرانه بما ظننته فضة صافية ، وتدلت من سقفه ثرياتبراقة متألقة ، وفرشت أرضه بسجاد فاخر ، وتناثرت فيه أرائك من الذهب قد كسيت بالقطيفة الحمراء !

لم أفقد وعيى وأنا أشهد هذه الصور الفخمة لأول مرة ، ولم تعش عينى تلك الأضواء البراقة التى لم يكن لى بها عهد ، ذلك لأنى رأيت بعض تلك الصور فى (صندوق العجب) (١) وسمعت عن بعض هذه الأضواء فى القصص والأحاديث عن القصر المسحور وجنة الأمراء . وهكذا صمدت لروعة المنظر ، وأخذت أحدق فى ألوانه ، محتملة متماسكة ، ثم تحركتلألحق بالخادمات ، فروعنى أن أرى فتاة مثلى تماما ، تتحرك أمامى كما أتحرك ، وتدنو منى وعلى وجهها أمارات ذعر مروع !

كانت الجدران مغطاة بالمرايا ، ولم أكن شاهدت فى حياتى غير مرآتين اثنتين ، لا تتجاوز الواحدة منهما حجم الرغيف الصغير .

أما الأولى فكانت فى بيت أبى ، وقد حطمها فى الحادث المشئوم .

وأما الثانية فكانت للخادمات ، يضعنها فى صندوقهن بغرفتنا .

ولا أذكر أنى رأيت مرآة كبيرة فى صندوق العجب . وفات

---

(١) هو صندوق الدنيا ، ويسميهالفلاحون فى بعضمناطق الريف « صندوق العجب »

القصاصين والسمار الذين يصفون القصور المسحورة ، أن يذكروا لى أن جدرانها مغطاة بالمرايا ٠

وبينـا أنا فى غمرة الفزع المباغت ، فتحت الأبواب وخرج منها موكب فخم من الأميرات الجميلات والسادة الأمراء ، يتقدمهم سيدى الشاب ٠ حدقت فيهم مأخوذة مسحرة ٠ لم أكن شهدت قط مثل هذا الموكب من الجمال والبهـاء ، ولقد تلمست بدنى بيدى لأستيقن من يقظتى ، ثم أدركت حرج موقفى والتمست مخرجا مما عرانى من حيرة ودهشة واضطراب ٠ على أن السادة كانوا قد اقتربوا منى فى طريقهم الى الباب فلمْ يغد سبيل الى الفرار . نظرت الى السيد ضارعةً متوسلة ، وقد خشيت أن يركلنى بقدمه ويقذف بى الى الطريق ، لكنه مر بى ثم تجاوزنى هو وصحبه ، لم يكد واحد منهم يحس وجودى أو يتنازل بالنظر الى ٠٠٠

وعجبت لنفسى ! لم تشعر بفرحة النجاة من الموقف الحرج ، وانما عز عليها أن يجهل السيد وجودى ولا يحس بى وأنا بين يديه ! على أنى زعمت لنفسى أن السيد قد شغل عنى بضيوفه ، وبقيت ريثما يعود ٠

مددت يدى فنظمت ما اضطرب من شعرى ، ونفضت ما علق بثوبى من غبار ، وتهيأت لاستقبال السيد العزيز وقد طابتِ نفسى لخدمته وارضائه ٠

ورددت الكلمات الحلوة التى أعددتها لألقيها اليه : سأقول له انى أمضيت فى خدمة القصر عامين طويلين ولا شىء يشغلنى سوى التفكير فى ارضائه . وسأتوسل اليه أن يعلمنى كيف أفعل ، لأحقق حلم أمسى وأمل غدى !

وعاد السيدبعد توديع ضيوفه ، وأشرقعلى بقامته الرائعة ومنظره الفخم ، فابتسمت له ابتسامة عريضـــة وفتحت فمى لأتكلم ، لكن الكلمات تعثرت على شفتى ٠٠٠

نظر السيد الى ، ثم هم بالمضى عنى ، فأشفقت من ضياع فرصة العمر ، وناديت شجاعتى وأنا أتشبث بحقى فى الحيـــاة ، فوجدت صوتى بعــــد أن احتبس فى حلقى وهتفت فى توســــل وتبجيل : أيها السيد !

لم يجب ، وعدت أردد فى الحاح ورقة :

أيها السيد ! يا سيدى العزيز !

فنظر الى فى غير اكتراث وانتظر !

قلت : هل يريد سيدى أى خدمة ؟

قال فى جفوة : لا !

ومضى ...

فعدوت الى غرفتى فارغة اليدين من الحلوى والفــاكهة ، مملوءة القلب بالهم والأسى ..

وهناك ، أغلقت الباب على ، ثم دنوت فى حذر اللص من صندوق الخادمات ، واختلست نظرة الى وجهى فى المرآة الموضوعة فيـــه ، لأقارن بينى وبين الفتاة المحظية السعيدة ، وأقيس جمالى الى جمالها !

خيبتنى المرآة ، فقد كان لون « زهرة » أبيض كاللبن ، وكنت سمراء قد لفحتنى شمس الجزيرة التى أمضيت طفولتى سافرة طليقة فى ربوعها .

وكانت « هى » ممتلئة الجسم فارعة القوام ، وكنت هزيلة ضئيلة لا حظ لى من الامتلاء .

وكان شعرها أصفر ذهبيا يضىء فى الشمس ، ويتهدل على كتفيها ناعما كالحرير ، وكان شعرى كستنائيا يتموج فى تجعدات ظاهرة .

وكانت عيناها خضراوين كأعين (الخواجات الافرنجيات) وكانت عيناى عسليتين يخيل الى الرائى من بعيد أنهما سوداوان !

ثم هذه الثياب الجميلة التى ترتديها ، والأساور والعقود البراقة التى تزين عنقها ومعصميها ، ومشط (الألماس) الذى يتوج رأسها ، لم يكن لى شىء من هذا ولا أمل فى الظفر به • وأين منها ثوبى الخشن الباهت وأساورى الزجاجية الرخيصة ، ورائحة المطبخ التى تلازمنى لطول ما أمكث فيه ؟؟

وكان وهما صبيانيا أن أظن أن قليلا من الدهن المعطر يزيل تلك الرائحة ، وأن قطعة من الصابون الممسك تجلو بشرتى ، فتجعل منى فتاة أنيقة ناعمة !

أرجعت المرآة الى حيث كانت ، وودعت آمالى وأحلامى ، وأسلمت نفسى الى الحزن والهم حتى أثقل النعاس جفنى فنمت ••• نومة المهموم التعس الذى استراح الى اليأس •

ثم أصبحت فى الغد لأستأنف الحياة فى دار الخدمة ، وأنا أشعر أن شيئا فى قد مات ! لم أعد أتطلع الى القصر ولا أرقب خروج السيد ، ولا أقلد حركات الخادمة السعيدة التى ظفرت برضاه ، ولا أتلهف على رؤية « أم سليمان » ولا أختلس بيض الدجاج •

ولما حان موعد الهلال الجديد ، لم أحتمل الخروج لاستقباله عند السياج ، بل وقفت عند النافذة شاردة ساهمة حزينة ، حتى اذا بزغ على الأفق انحدرت من مقلتى دمعات كبيرات ، وقلت فى مرارة ويأس : لا أمل بعد اليوم ! لقد سعيت فخاب مسعاى ! ان السيد لا يكترث لى ولا يشعر بوجودى •

***

وأنكرت الخادمات بعض أمرى ، وسخرن بما يبدو على من وجوم واطراق ، وحلا لهن أن يتخذن منى هدفا لعبثهن وفكاهتهن •

سألت سائلة منهن عن سر شحوبى واكتئابى وصمتى ، فأجابتها

أخرى فى قهقهة عالية : ، « لعلها مريضة » ، وعقبت ثالثة : « تلك أعراض مرض الحب » .

ولقد أوجعننى بهزلهن وعبثهن ، لكنى احتملت صابرة ، فما كان هذا العبث شيئا بالقياس الى ما كنت أكابد من محنتى .

ولما خلوت الى نفسى ساءلتها : أمريضة أنا بالحب ؟ فردت على فى بلاهة : وما الحب ؟ قلت : لا أعرفه ، ولكن الخادمات الكبيرات يعرفنه ، وقد ذكرن أننى مريضة به ، فلابد أنى كذاك .

وانطويت على نفسى ، فاذا الألم شائع فى ، واذا بى أقول ذاهلة مستسلمة : لعل أعراض الحب هى الوجوم والاطراق والاكتئاب والشحوب والهزال . ان كانت كذلك فقد صدقت الخادمات !

وشعرت لذلك ببعض الخجل ، فقد سمعت من قبل أن الحب اثم وعار ، لكنى ذكرت وصية أبى فعاد لى شىء من الهدوء والاطمئنان ، وقلت فى اخلاص وايمان : الله يشهد أنى ما أحببت سوى السيد ، وحبه فرض على مثلى !

٣

ثم رأيته فجأة أمامى ، وجها لوجه !

كان ذلك فى أصيل يوم قائظ ، وقد نزح أهل القصر الى المدينة وانصرف الخدم للاحتفال بعرس واحد منهم قد تأهل بفتاة من الجيرة ، وبقيت أنا فى غرفتى منطوية على نفسى أعرى جراحى وأجتر أحزانى

وفتح الباب فانتبهت ، لكنى ظللت فى مكانى ساهمة مطرقة ، وقد أشفقت أن يكون الطارق احدى الخادمات ، ورجوت أن تمضى عنى قبل أن تلمح آثار الهم على فتوجعنى بسخريتها وعبثها .

وتحرك الطارق بعد حين ، فاختلست نظرة اليه فاذا « السيد » أمامى !

انتفض بدنى ودارت بى الدنيا ، لكنى تماسكت ونهضت اليه وأنا أضغط بيدى على قلبى ، وقد خشيت أن يتمزق .

ثم رفعت عينى اليه وجرؤت – لأول مرة – على أن أطيل النظر فيه ، وهو يقف وسط الغرفة ، مطرقا ساهما يحدق فى الأرض ، ويداه تعبثان بقطع من النقود الفضية فى جيبه ، وعلى محياه الجميل ، ملامح الحزن والغيظ والغضب !

بدأت آمالى المشردة تتجمع من هنا وهناك ، وتيقظت فى بغتة أحلامى الهاجعات ، فهتفت فى فرح وعجب : سيدى فى غرفتنا ؟

لم يجب السيد ، وبقى على وجومه واطراقه ، وأنا واقفة بين يديه ، أفكر فى هذا الحادث العجيب الذى دعا السيد الى زيارة غرفتنا الحقيرة فى دار الخدمة .

وطال وقوفنا وطال صمتنا •

الى أن قال السيد ، يحدث نفسه :

اذن فقد مضت ؟!

سألت في حذر : من يا سيدى ؟

قال فى غير وعى : من ؟ « زهرة » ! لقد أمرتها أن تنتظر فلا تبرح الدار •

قلت منكرة : وجرؤت على أن تعصى أمرك ؟!

فنظر الى ، لكن نظرته انحدرت عنى فى أسرع من لمح البصر ، وعاد الى اطراقه وسكونه •

ومضت لحظات ، ثم سمعته يسألنى ، وان لم يبد عليه أنه يحس وجودى :

أواثقة أنت أنها مضت ؟

فتألمت له وقلت : وددت لو أقول لا ، ان كان ذلك يرضى السيد !

فضحك ضحكة فاترة ، وهز رأسه قائلا : لكننى لا أراها هنا !

فنظرت اليه وسألت فى ضراعة :

هل يسمح السـيد فيخبرنى عما يريده منها ؟ أولا أستطيع أن أتشرف بخدمته بدلا عنها •

فعاد ينظر الى ، كمن يرانى لأول مرة ، وهنا ذكرت وصية أبى ، وتوسلت الى السيد أن يسمح لى بتقبيل يده الكريمة •

فتبسم ضاحكا من قولى وسألنى : من أنت ؟

قلت : خادمتك •••

قال : متى وفدت على القصر ؟

أجبت : منذ ثلاثة أعوام ، وكنت فى كل يوم منها أنتظر أن يؤذن لى بالخدمة فى القصر ، ولما أحظ بهذا الشرف بعد !

فهز رأسه وسأل : ولماذا تريدين الخدمة فى القصر ؟ أو لا يعجبك البقاء هنا ؟

قلت : بلى ، لكننى أود أن أتشرف بخدمتك لأحظى برضاك !

فمد السيد يده ، وربت على خدى فى رفق ، فمادت بى الأرض ، وأحسست موجة من عطفه تغمرنى وتهز كيانى كله ، وخيل الى فى تلك اللحظة أن يدا مجهولة قد قربتنى اليـــه ، ومحت شيئا من الفروق الهائلة التى تفصلنى عنه ، وأذهبت أكثر ما أشعر به من تهيب ووجل . فنفضت اليه بعض أمرى : رويت له وصية أبى ، وأبحت له سرى الدفين ، وحدثته عن أملى الغالى وحلم صباى !

وكان السيد ينصت الى فى اهتمام ظاهر ، لم تفته كلمة واحدة مما قلت ، حتى اذا فرغت من حديثى أطرقت برأسى أنتظر كلمته فى ، وحكمه على .

قال بعد صمت مريب : ما أحسبنى رأيتك من قبل !

قلت : بل رآنى السيد يوم عاشوراء من السنة الماضية ، وكان فى جمع من أصحابه ، وقد وقفت فى ردهة القصر حائرة مشدوهة لا أستيطع أن أحرك قدمى من فرط رعبى وحيرتى ، لكن السيد مر بى ولم يلتفت الى .

قال : فماذا فعلت ؟

قلت : عدوت الى غرفتى هذه ، ونظرت الى المرآة أقيس نفسى « بزهرة » التى شرفتها برضاك ، فاذا البون بيننا شاسع واذا الفرق بعيد .

فلمعت عينا السيد ببريق خاطف ، ثم أخذته نوبة من الضحك

زلزلت بدنه ، فانكمشت خائفة وجلة . ورأى السيد ما عرانى فأمسك عن الضحك فجأة وقال متسائلا :

ماذا ؟ هل يحزنك أنك أضحكت السيد ؟

فأشرق وجهى بابتسامة سعيدة ، ورفع السيد وجهى اليه ، ومضى يتفرس فى ، ثم أطلقنى قائلا :

ما زلت صغيرة بعد ! لكنى سأراك يوما وسأرضى عنك ...

ودنا من النافذة ، ولبث لحظة يحدق صامتا فى الأفق المخضب بحمرة الشمس الجانحة الى المغيب . ثم ألقى على نظرة طويلة قال بعدها : لا تحدثى أحدا بما كان ، فهو سر بيننا !

وانطلق ، وخلفنى فريسة الفرح القاتل والدهشة البالغة ...

انطلق بعد أن هاج أشواقى الراقدة ، ورد الى أحلامى المشردة ، وأثار الأمل فى قلبى الهائم المشوق ..

ولما عادت الحياة الى الدار ، اعتقد الصحاب والزملاء فى ، تلك المخلوقة الضـــئيلة الحزينة التى تعودوا أن يروها تروح وتجىء كالشبح : ساهمة واجمة شاردة ، كأنما تحمل أحزان الدنيا فى هيكلها الشاحب الهزيل . افتقدوها فى ، فألفوا مكانها واحـــدة أخرى مرفوعة الهامة مشرقة الأسارير ، تتفتح للحياة فى بشر ظافر ، ويتألق وجهها بابتسامة هانئة عريضة .

وبدأت نظرتى الى هؤلاء الصحاب تتغير ، فان أحداث الأمسية القريبة رفعتنى درجة فوقهم ، وأشاعت فى ذاتى شعورا جديدا يغرينى بالترفع والتعالى والكبرياء . ولقد أنكروا منى هذا لكنى لم أكترث لهم ، فما كان يجوز لمثلى أن تعبأ بانكار الخدم ، وهى التى استودعها السيد سرا ، وبث فيها أملا .

وتحدثت الخادمات معى فيما طرأ علىّ من تغير ، فأجبتهن بنظرة مترفعة تحمل معنى من معانى الرثاء • لم أعد أعتبر نفسى زميلة بينهن ، ولا أعترف لهن بالحق فى سؤالى عما كان ويكون ؟! واحدة منهن فقط ، آثرتها بالاحترام • تلك هى « زهرة » الخادمة المختارة التى ارتفعت برضا السيد عن مستوى أولئك الخادمات ، وليس فيهن مثلها من حظيت بهذا الشرف ، وليس فيهن مثلى من استأمنها السيد على بعض سره ، ووعدها أن يلقاها يوما ويرضى عنها •

لم أسلم من سخرية الخادمات، كما لم تسلم منهن الفتاة الأخرى على أنى لم أضق بهـــذا بل رثيت لهن • مسكينات ! يحسدن الفتاة المختارة المحظية ، ويجهلن أمر الفتاة الموعودة المنتظرة !

***

ومضت الأيام متشابهات وأنا من اللقاء الأول فى نشوة غامرة مضيئة لم يفسدها التألم لبعدى عن السيد أو تعجل اليوم الموعود •

لم أكن فى تلك الفترة أعيش فى الغد المنتظر ، وانما كنت أعيش فى أمسى المحقق ، لقد لقيت السيد ، سيدى وسيد هؤلاء الناس وسيد الأرض ! لقيتـــه ، وتحدث معى ، وابتسم لى ، وأودعنى بعض سره ووعدنى باللقاء والرضا .

كل هذا كان حقـــا ، وبعضه كان يكفى لتغذية قلبى بالنشوة والفرح ! •

***

ومضت أسابيع وشهور ، وهذه النشوة تصد الهم عنى وتعصمنى من الجزع واليأس ، حتى اذا اكتمل عام على لقائنا الأول ، بدأت أشعر أن زاد هـــذا اللقاء أخذ يتضاءل ويتضاءل حتى أوشك أن ينفـــد • وأحسست أن ما بقى لى من هذا الزاد لم يعد يروى قلبى • لكنى ناضلت عن هناءتى واعتصمت بذكرى ماضى ، فلم أسمح للهموم أن تغزو قلبى •

ثم مضت أسابيع أخر وشهورأخريات ، وتراخى العهد ، وأوشكت دورة الزمن أن تتم عاما ثانيا ، وما يزال السيد بعيدا عنى لا يدعونى اليه .

بدأت الهموم تتسلل الى قلبى فى غفلة منى ، وأمست ليالى معذبة موزعة بين سهد موجع ، ونوم تمزقه أحلام قاسيات ، لكنى كنت أثوب الى يقظتى وأتشبث ببقية من أحلامى ، لأذود عن نفسى الهم واليأس ما استطعت .

****

ورأتنى « أم سليمان » ذات يوم ، فصعدتنى بنظرة من نظراتها الفاحصة النفاذة ، حتى اذا ملأت عينيها منى قالت فى لهجة مريبة :

لقد كبرت يا فتاة !

أرهبتنى نظرتها فلم أجرؤ على مواجهتها ، ومضيت عنها ، وأنا أزعم لها أن بعض أهل الدار يدعوننى ، ولما خلوت الى نفسى ونأيت بها عن النظرات الفاحصة المريبة ، لم يعاودنى الهدوء ، بل ألفيتنى أردد فى وجوم حزين :

« لقد كبرت يا فتاة » .

« قال لى السيد فى لقائنا الأول : ما زلت صغيرة بعد ، ولكنى سأراك يوما وأرضى عنك ! » .

« وهأنذى قد كبرت ... لم أعد صغيرة كما كنت يوم رآنى ، كبرت ولما يف السيد بوعده . »

وخيل الى أن السيد قد نسينى ونسى وعده ، وانهارت قواى فجأة عند هـــذه الفكرة ، وباغتتنى الهموم ، وأنا فى نوبة الضعف والاعياء ، فنفذت الى قلبى وبدأت تغزوه وتنال منه .

يا لها من أيام قاسية وليال طويلات ! مازلت حتى اليوم أفزع من ذكرى هذه المحنـــة • كنت من قبل أحمل السر العزيز ، والأمل الغالى ، وأشعر أنى أرتفع بهما درجة فوق من حولى من الناس ، فأمسيت أحمل الهم والأسى ، وأحس أننى معلقة الى السماء بخيط واه لن يلبث أن يهى ، فأهوى الى الأرض أشلاء ممزقة تعسة باكية .

حاولت أن أتشبث بماضى وأعتصم به ، لكن العهد بذلك الماضى كان قد تراخى حتى لم يبق منه سوى نقطة باهتة ، تتأرجح قلقة على أمواج الزمن ، وتمضى مسرعة الى العدم •••

***

ثم لاحظت فجأة أن شبان الضيعة بدأوا يطيلون النظر الى ، وأن الخدم أخذوا يتقربون منى ويتوددون الى ، وقد أهمنى ذلك أول عهدى به ، فقد خشيت أن يكون سرى ذاع بينهم فجاءوا يطلبون الود الذى زهد السيد فيه وأغفله غير مكترث به • وشكوت أمر هؤلاء الشبان الى « أم سليمان » لعلى أعرف منها ان كان سرى قد ذاع ، فأصغت الى شكواى ثم ضحكت بملء فمها وقالت فى خبث :

يالأنوثة العابثة ! كأنك تجهلين أنك امتلأت ، وبلغت ، واستويت فتاة ناضجة ! ها قد جاءك قولى : انك قد كبرت ! وأقسم أن سيكون لك شأن !

نسيت محنتى فى تلك اللحظة ، نسيت السيد وصمته وجموده ، وأحسست نشوة خافتة تدب فى قلبى الهامد ، وتسرى فى كيانى على استحياء : لقد أعجبنى ما سمعت من تملق العجوز ، واستخفنى الزهو ، وحلا لى أن أستزيد من هذا الحديث عن فتنة أنوثتى الناضجة ، فاصطنعت الغباء وسألت :

أى شأن ؟

أجابت : لسوف يفتن بك أحد هؤلاء الشبان الذين يطيلون النظر اليك فينزعك من هذه الدار ويمضى بك الى بيته !!

قلت : كيف ؟

فردت على ضاحكة : يتزوجك يا حمقاء ، ويدخلك الدنيا !

تبددت نشوتى فى تلك اللحظة ، وردتنى كلمات العجوز الى الواقع المر ، فذكرت ما كان من أمرى وأمر السيد ، وحزنت لما انتهى اليه حالى . كنت أطمح يوما الى ارضاء سيد الأرض ، وأنا اليوم قد تضاءلت حتى طمع فى ، خادم السيد !!

ولمحت على الأفق ظلا مبهما لهذا المصير المتواضع الضئيل ، فأشفقت على نفسى منه وامتلأت مرارة وألما !

* * *

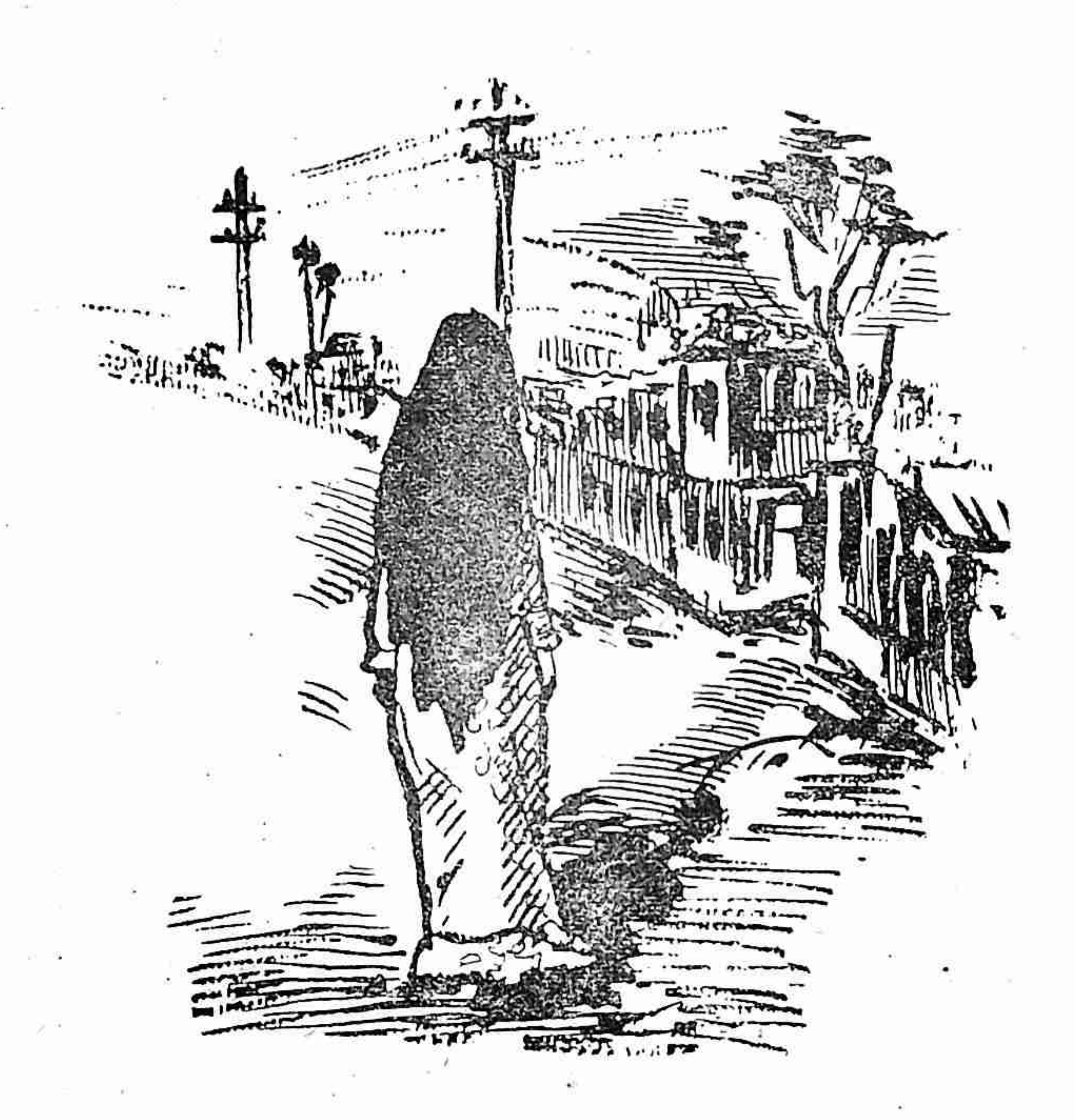
وفى الصباح رأيت « زهرة » تأمر أحد الخدم باعداد قهوة للسيد ، ثم تنطلق الى القصر وتدخله فى كبر وعظمة ودلال ، فقارنت بين هذه الفتاة الأنيقة المتعطرة ، وبين هؤلاء الريفيات اللائى يسرحن على الأرض كالسائمة ، قذرات خشنات ذابلات ، تقرأ على وجوههن الشاحبة سمة الفقر ، وترى على أجسادهن الهزيلة طابع الحرمان . يشقين بالنهار فى خدمة البهم والأرض ، ويأوين بالليل الى تلك الأكواخ التى تقوم الى جانب القصر ، مظلمة ضئيلة ، تحدث عن ضعة أهلها وذلهم وفقرهم .

ولما فرغت من المقارنة ، خيل الى أننى عائدة من رحلة مضنية . لقد كانت المسافة بين « زهرة » وبين هؤلاء الريفيات ، طويلة شاسعة تملأ ما بين السماء والأرض : وكان عسيرا على أن أقطع ذلك الشوط ، فأدرك الفرق بين ما رجوت أن أكون ، وبين مصيرى المرتقب : لقد

سموت يوما الى مثل مصير « زهرة » الأنيقة النظيفة التى تدخل القصر فى خيلاء ، وتصدر الأوامر عن السيد ، فاذا بى أرشح لأن أكون زوجة لأحد عمال الضيعة ، فأنضم الى موكب هؤلاء المسكينات الذليلات ، وألحق ببؤسهن .

أنهكتنى الرحلة ، فأخفيت رأسى بين يدى وأجهشت بالبكاء ، ثم غشيتنى كآبة ربداء ، وهمود موحش ميت !

الكتاب الثالث



ذهبت ولم تعد

٤

غابت عنا « زهرة » أياما فى رحلة غامضة كثرت فيها الأقاويل ، وشاع بين الخدم أن السيد غاضب عليهـــا لأنها أبت أن تتزوج من « حارس المقبرة » الذى اختاره لها ، وقال قائل انها ربما لا تعود الى القصر فان عصيان السيد خطيئة لا تغتفر ، فأجاب مجيب : بل هى لابد عائدة ، فقد سمعت « الست الكبيرة » تنصح للسيد أن يقسو على الفتاة حين تعود ، اذ يجب أن ترضخ لما يراد لها ٠

وكانت هذه الأقوال تصل الى مسمعى مبهمة لا تبين ، فعجبت لهذا الذى سمعت ، وأى عجب أكثر من أن يدفع السيد فتاته المختارة الى هذا الشيخ الأبله الفانى الذى يسخر منه صبية الحى ، وتأبى الزواج منه « مسعودة » العجوز السوداء !

أى مصير عجيب يقرره السيد لتلك الزهرة المعطرة البيضاء ؟ ما خطيئتها الكبيرة التى استحقت عليها ذلك المصير المنكر ؟

هل أغضبت السيد ؟ ربما ، ولكن أما يشفع لها دلال مكانتها منه وتفانيها فى خدمته ؟ ٠

هل أغضبت « الست الكبيرة » ؟ ربما ٠٠ ولكن منزلتها لدى السيد الشاب ، كانت جديرة أن تعصمها من هذا الهول المخيف ؟

ولزمت خادمات القصر حينا لعلى أجد عندهن مخرجا من حيرتى ، لكنهن اعتصمن بالصمت فلم يتحدثن عن « زهرة » الا همسا حين تضمهن غرفتهن فى الليل ٠ وكنت أصغى اليهن ، لعلى أعرف بعض ما يتحدثن به ، الا أن سمرهن كان ينتهى الى ، فى همهمة خافتـة لا تتميز فيها الأصوات .

وعادت « زهرة » من رحلتها بعد حين : هزيلة شاحبة متعبة ، وأذاع مذيع أنها نقلت من القصر الى دار الخدمة ، فاستقبلها الخدم واجمين ، وحيتها الخادمات بابتسامات عابثة تقطر سخرية وحقدا واشتفاء ، وكنت أنا الوحيدة التى رثت لها من بينهن فواسيتها بنظرة حزينة راثية ، ثم دنوت منها فى رفق فحملت عنها صرة ملابسها وسألتها أن تمضى معى الى غرفتنا لتستريح •

استسلمت « زهرة » ليدى ، وراحت تجر معى قدميها جرا حتى انتهينا الى مأوانا ، ثم هدأت فى الفراش هـــدوءا موجعا هو أدنى الى الموت ، ولم يبق لها من علامات الحياة الا عينان تحدقان فى غير شىء بنظرات خرساء ! •

خرساء ؟ كلا لم تكن نظراتها خرساء ! بل كانت تحدث عن ألم مبرح وهم أليم •

وجلست الى جانب فراشها أرقبها صامتة متأملة ، فأدركت بغتة أنى أحبها من كل قلبى : انها تمثل حلم صباى الباكر ، وانى لألمح فيها ظلال السيد الذى أحببته أخلص الحب ، وأرى فيها الفتاة التى اشتهيت أن أكون ، كنت من قبل أحس نحوها عاطفـــة هى مزيج من الحب والمقت والحسد والاكبار ، واليوم أراها الى جانبى هيكلا متعبا ذاويا ، تستل بآلامها كل ما كان يشوب حبى لها من مقت وحسد •

وغدوت من ذلك الحين صديقة لها ، أذود عنها قسوة الخادمات وأدفع عنها أذاهن ما استطعت ، كان هبوطها من سماء القصر الى دار الخدمة ، يرضى جقدهن عليها وحســـدهن لها ، وكان انحدارها من صحبة السيد الى زمالة الخادمات يثير فيهن عاصـــفة قاسية من الشماتة والاشتفاء ، وقد تحاشين جهدهن أن يتحدثن اليها وان

كن أبدا يتحدثن عنها ويعرضن بها · وكانت هى تلقى كيدهن صابرة صـــامتة ، وأنا الى جانبها لا أتخلى عنهـــا رغم الذى لقيت من عبث الخادمات ·

على أنهن لم يلبثن أن نسين فيها « زهرة » التى أثارت بالأمس نقمتهن وألهبت فيهن نار الغيرة والحسد . . . نسيتها بعد أن ارتوى ظمؤهن الى الشماتة ، وأصبحن لا يرين فيها الا أنثى بائسة تعرض (مأساة الجنس) وتمثل صورة من شقائهن ···

وأسرفن فى العطف عليها بقدر ما أسرفن من قبل فى الشماتة بها ، فتقبلت « زهرة » هذا العطف فى ابتسامة حزينة شاحبة !

وكف كل منا عن التحدث فى المأساة ··

وبدا على « زهرة » أن شيئا فيها قد مات ، فكانت تمضى ساعات طويلات ، جامدة صامتة كأنها جثة ، وعافت الطعام الا قليلا ، وأمسى نومها نوعا من الهمود المتعب المريض ، وكانت تنهض من فراشها فى عنف فتمضى هائمة على وجهها وتنطلق خارج الدار كأنها تفر من مطارد ، وما تزال تجرى وتجرى حتى تخور قواها فتهوى الى الأرض وتبقى حيث هى ، الى أن تدركها واحدة منا فتحملها الى فراشها ، ونتعهدها برعايتنا حتى تثوب اليها قواها الذاهبة ، ويرتد وعيها الغائب ·

سألتها يوما ان كنت أستطيع أن أفعل من أجلها شيئا ؟ فهزت رأسها فى مرارة ومضت عنى دون أن تجيب ، ثم عادت الى بعد حين تسألنى ان كنت عرضت عليها معونتى ؟ قلت : أجل ولا شىء أحب الى من ذلك . قالت : فأنت تستطيعين أن تفعلى من أجلى شيئا كثيرا . سألت : وما ذاك ؟ فأجابت : تحملين عنى رسالة الى السيد !.

السيد ؟! أجفلت عند سماع هذه اللفظة الحبيبة ، ولاحظت «زهرة» شيئا مما حل بى فسألت فى رفق : ما بك يا فتاة ؟

قلت : لا شيء بى . هل زعمت أنى أستطيع أن أحمل عنك رسالة الى السـيد ؟ وكيف لى بذاك ؟ وهو لمثلى أن تجرؤ على الدخـول الى السيد ؟ .

فضحكت زهرة ضحكة غريبة كأنها عواء حيوان ذبيح ، ثم أجابت : ولم لا ؟ انهم ناس من الناس .

ولم تزد ، بل انطلقت وبقيت حيث كنت ، أنبش الأرض بعـود من حطب القطن ، ذاهلة لا أعى . ثم انتبهت فجأة على صوت قلبى وهو يخفق مرتعدا ، وأحسست آلامى تنبثق منه كما يتدفق دم من جرح كبير !

ترى هل كنت قد نسيت السيد فى غمرة اليأس ؟ أم هل شغلت عنه برعاية « زهرة » فى شقوتها ؟ كلا ! ما نسيت السيد قط ، انما هدأت الى اليأس من أملى فيه . ولعلى ما أحببت « زهرة » الا لأنها تمثل حبى له ، ولعلى مارعيتها الا لأنى لمحت فيها ظلا من السيد العزيز ، ولعلى ما لزمتها الا لتحدثنى عنه وقلما كانت تفعل

والآن ، تأتى « زهرة » فتنكأ جرح قلبى وتوقظ فيه الألم الرافد والأمل الخائب ؟ أيمكن أن ألقى السيد وأحدثه ؟ لم لا ؟ « انهم ناس كالناس » هكذا قررت « زهرة » ، وهى لا ريب أكثر منى خبرة بهم وبالحياة .

ونهضت أسعى الى « زهرة » فألفيتها فى الحظيرة تلقى الحب للطير ، وذكرت فى تلك اللحظة رحلتى الى هذه الحظيرة فى الأمس الدابر البعيد ، سعيا وراء البيض ، لأشترى الصـابون الممسك والدهن المعطر . ترى هل هجر السيد « زهرة » لأنها لم تعد تكترث بزينتها وتضمخ شعرها بالطيب ؟ هممت بسؤالها عن ذلك ، لكنى ما لبثت أن أمسكت حين رأيتها تبكى .

زال ترددى فى تلك اللحظة وصممت على أن أكون رسول «زهرة» الى السيد ، وليكن بعد ذلك ما يكون ٠

سألتها : هل قلت يا زهرة انهم ناس من الناس ؟ انى لا أراهم كذلك ، فقالت فى جد رهيب : انى أعرفهم ! وانهم ناس أيتها الطفلة ، مثلى ومثلك تماما ... لهم خطاياهم ، وضعفهم وصـــغارهم ، وفقرهم وشقاؤهم ، كما لهم الغنى والترف والمال .

اذهبى فاسألى السيد أن يصرف عنى أذى « الست الكبيرة » ان استطاع ، فهى تسرف فى العبث بى والقسوة على ، واسأليه أن يكف عن حديث الزواج ، فقد زعم لبعض أهل الحى أن ذلك الزواج قد تقرر رضيت أو كرهت ، وأقسم ليكونن هذا ـ ان صح ـ آخر عهدى بهؤلاء الناس ٠

قولى له عنى انى أحمل فى كيانى حطام الماضى الذى يعرف ، وأريد أن أحمل وزر الخطيئة وحدى ، ولا حاجة بى الى معونة الشيخ المعتوه المسكين ، ففىّ بقية من قوة واحتمال تحجزنى عنه ، ولا أحد على الأرض يرغمنى على ذلك المصير الرهيب ، لأنى أعرف سبيل الخلاص ٠

* * *

ذهبت الى القصر أحمل الى سيده تلك الرسالة العجيبة ، وفى نفسى أن أخفف من حدتها وأكتفى برجاء السيد أن يحول بين « زهرة » وبين المصير الذى ترهبـــه وتنكره ٠ ولم يفتنى أن أصلح من أمرى وأستحم بالصابون الممسك وأضمخ شعرى بالدهن المعطر ٠ لقـــد استيقظت فىّ ، الصبية المحبة التى تشتهى رضاء السيد وتسعى الى ادراكه ٠ وكان احساسى وأنا فى الطريق الى السيد ، خليطا مبهما من شتى الأوهام والآمال والمخاوف والهموم ، فلم أدر هل أنا ساعية اليه برسالة « زهرة » ؟ أو أنى ماضية للقائه ، ولا شأن لى بتلك الفتاة الأخرى ! ٠

وهناك فى شرفة القصر ، وجدته مستلقيا فى تراخ على مقعد طويل ، يقلب لاهيا مجموعة من صور النساء ، فتقدمت منه وعلى شفتى ابتسامة خجلة ، وخفق قلبى له فى عنف رهيب ، فنسيت « زهرة » ومصيرها المنكر ، ونسيت رسالتها التى جئت أسعى بها ، ووددت لو أركع خاشعة متعبدة أمام ذلك الجلال المستريح ، وأغمر يديه وقدميه بقبلات ولائى وحبى ، لكنه رفع رأسه فى بطء ، وتطلع الى كمن ينتظر أن أتحدث وأمضى ، فلبثت صامتة أرتجف ، حتى ضاق بى وسأل فى جفوة وخشونة : ماذا تريدين ؟ .

قلت : انى أحمل رسالة الى السيد من « زهرة » فهل يأذن فى أن أبلغها ؟ .

لم يجب السيد ، وظل ينتظر بقية الحديث فمضيت أقول : انها ترجو السيد أن يحول بينها وبين الزواج من حارس المقبرة الشيخ .

قال فى ضجر : ثم ؟ .

قلت متشجعة : لقد بلغها أن هذا الأمر يوشك أن يتم وهى لن ترضى بذاك ، لأنها تعرف سبيل الخلاص .

فهز رأسه كمن لا يعنيه الأمر ، ثم سألنى من أكون ! فانخلع قلبى قهرا وغما ، لقد نسينى السيد وكنت أظنه لا ينسى !

قلت متماسكة : انى خادمة فى الدار يا سـيدى من زميلات « زهرة » . وقد أهمنى ما تكابد من حزن وشقاء ، فلم أحتمل أن أراها تذوى وتضمحل أمامى من غير أن أفعل شيئا من أجلها ، ولذلك جرؤت أن أحمل رسالتها الى السيد ، وانى لأتوسل اليه أن يغفر لى جرأتى .

فعاد الى مجموعة الصور يقلبها بين يديه لاهيا ، وبان عليه أنه نسى وجودى ، فانسحبت من حضرته أختلس الخطا محزونة النفس كسيرة الفؤاد .

ولقيت « زهرة » فى انتظارى هادئة ، فأوجعنى أنى رجعت اليها بغير جواب ، وذكرت هموم أمسى ويومى وغدى ، فتخاذلت قواى فجأة ، وهويت الى جانب الفتاة أبكى لى ولها !

فأخذت المسكينة رأسي على صدرها من غير أن تحاول اسكاتي ، حتى اذا هدأت العاصفة رفعت رأسي ونظرت اليها ، فاذا بها تبتسم ابتسامةرقيقة فاترة ، وراحت‌تسألني عما ألم بي ، فأجبتها اني حزينة لأن السيد أجاب بالصمت .

قالت : ولكنني لم أكن أنتظر جوابا ... كل الذى أردت ، أن تبلغه رسالتي ، وقد فعلت وحسبي ذاك .

قلت وأنا في غمرة من الأسى : لم أكن أنتظر أن يتجاهل وجودى ! لقد رآني قبل اليوم ، وتحدث الى . والآن يسألني من أكون ، ثم ينصرف عني الى صوره كأن لم يرني من قبل !

فكفت الفتاة عن الابتسام وأخذت تحدق في عيني ، وهي تهز رأسها في ألم وحنان .

لقد عرفت « زهرة » بعض ما كنت أخفي من أمرى !!

***

ومضت أيام وزهرة » الى جانبي تحنو على وتتحـــدث الى ... لم تقل لى أنها فهمت شيئا ، على أنها مضت تروى لى بعض أمرها في شيء من التحفظ والمداراة . وزودتني بنصائح غاليات ، وأرتني صورة ماثلة للمصير الرهيب الذى ينتظر مثل ذلك الحب ، لكنني أصغيت اليها بأذن واحدة ، وتركت أذني الأخرى تصغي الى قلبي ، وطيف أبي .

واختلطت‌الأصوات‌عندى ، ورانت‌علىّ ، سحابة‌من‌الغباء والسذاجة والجهل والطيش ، فلم أدر أين الخطأ في حب سيد الأرض ونحن ملك يمينه ، وحبه فرض علينا ، ولم يرعني الذى تكابد « زهرة » ، فهذا جزاء من يتمرد على سيده .

وزينت لى النفس الجهول أن « زهرة » قد أحست شيئا من الغيرة وهي تراني أسعى الى السيد وأهتم بارضائه ، فعولت على ألا أكشف لها ولا لسواها ، عن أكثر مما علمت من سرى الغالي العزيز ...

٥

وذات يوم دعيت الى القصر لأنوب فى خدمة « الست الكبيرة » عن زميلة لنا مريضة ٠ وكان الخدم يتحدثون عن صرامتها وقسوتها فى أويقات السمر حديثا عجبا ، وكان منهم من يرد هذه الصرامة الى مأساة قديمة فى تاريخ الأسرة . رووا أن السيد الراحل لما أحس دنو أجله ، اشتهى أن يكون له ابن يرث أرضه وما عليها ٠ وكانت زوجه هذه عاقرا لا تلد ، الا أنها كانت ذات سلطان قوى تسنده صلتها الوثيقة بأحد كبار القوم ، وقد فرضت ذلك السلطان على السيد وأبت عليه أن يتزوج فخضع حينا طويلا ، وساعده مرح الشباب وترف الغنى على الرضا بما كان ، الا أنه بدأ يتمرد حين تقدم به العمر قليلا ، وأحست زوجه بوادر تمرده وطغيانه ، فهبت تدفع هذا الخطر ، وأحاطت زوجها بقيود قاسية لم تفلح فى اخضاعه ، وشاع فى الناس أن زواجا جديدا يوشك أن يقع فى القصر ، وجهر السيد بتمرده ، وتغيرت معاملته لزوجه ، فكان يسخر علنا بصلتها العتيدة بالأمير الكبير ٠

وتهيأ الناس لهذا الحادث الجديد ، ووفد على القصر عمال يهيئونه للعروس المنتظرة ، لكن الأمور تغيرت فجأة ، فاذا السيد يذل للزوجة ، واذا الزوجة تسرف فى ارهاقه ، ولا تتحرج عن السخرية به أمام الخدم ، وبدا عليه أنه يخافها ، فكان يتحاشى لقاءها ويعتكف فى غرفته أياما لا يرى أحدا ٠

وراجت اشاعات عن هـــذا التطور الغريب المباغت ، وأرجف

المرجفون أن الزوجة دبرت مؤامرة لزوجها فوقع فى الشباك ، وصارت تهدد الزوج باعلان السر الرهيب اذا أعلن العصيان •

* * *

ومات السيد بعد ذلك بأعوام طويلة فى ظروف غامضة ، وخيل للزوجة أنها استراحت منه وخلا لها الجو ، الا أن شبح السيد بعث فجأة من قبره وعلى شفتيه ابتسامة قاسية ساخرة ، وفى يده سوط انتقام رهيب . لقد تقدم شاب صغير الى القصر ، يحمل شهادة قانونية صحيحة بأنه ابن شرعى للسيد الراحل ، ووارث قصره وأراضيه •

هاجت الأرملة وثارت ، وبدأ نضال عنيف صريح بينها وبين الوارث الجديد ، الا أنها ما لبثت أن أدركت عقم نضالها فألقت السلاح • ومن ذلك الحين وهى تعيش فى القصر مقهورة شلاء .

على أن الأحداث جعلت منها مخلوقة فظة رهيبة ذات ملامح صارمة مخيفة • واشتهرت فى الضيعة بالحقد والحسد ، فتجنبها الناس وراحوا يحذرون صغارهم منها ويروون لهم عنها أقاصيص منكرة :

زعم زاعم أنه رآها فى الحديقة تضحك عاليا لأنها رأت عصفورا صغيرا أفلت من مخلب حدأة وفيه رمق من حياة •

وروى آخر أنه رآها تخفى فى ثيابها بعض هريرات صغيرات ، ثم تقف لتتفرج على أمهن وهى تبحث عنهن وتموء مواء يمزق الفؤاد •

وشهدت الفتاة الموكلة بحلب الماشية ، أن الست الكبيرة تحضر الى الحظيرة بين صباح وآخر ، فاذا رأت جاموسة ترضع صغيرها أبعدته عنها قبل أن يروى ، وأمرت الفتاة أن تحلب لها الأم ، ووقفت تتفرج على الأم الثائرة الهائجة ، والعجل الجائع المحروم ، والفتاة الحائرة الخائفة ، ثم انصرفت بعد المشهد الرهيب ووجهها مغمور بالغبطة والهناءة ، كأنها عائدة من شهود حفل بهيج !

وأقسم البستانى جهد ايمانه أنه صحبها مرات الى المقبرة ، حيث اعتادت أن تذهب متنكرة كلما بلغها نعى طفل صغير ، فتقف غير بعيد من القبر ، تصغى فى ابتهاج وحشى الى الأم الثكلى .. حتى اذا غيب الميت فى حفرته وهيل عليه التراب ، تنفست « الست الكبيرة » فى ارتياح ، ورجعت الى القصر كأنها عائدة من رحلة رائعة ممتعة .

وأكد الطاهى أنها تستدعيه أحيانا كثيرة ، فيحمل اليها الطيور لتذبحها بيديها ، ثم تشهد رقص الذبيح فى الدم وعيناها تتألقان ببريق مخيف !

وأقسم بعض صغار الحى أنهم رأوها تدخل الى أكواخهم خلسة فى ليالى الشتاء بعد أن ينام أهل البيت ، فتطوف حول الصغار ملثمة بقناع أسود لا يبين منه الا عيناها الناريتان !

وزاد بعضهم أنها كانت تلم ببعض الخرائب ، وكلما رأت صبيا وحيدا غصبت عينيه وهامت به فى وادى الجن ، ثم تتركه فجأة فيرى نفسه فى مكان بعيد عن الحى ، لم يفكر قط فى الذهاب اليه .

ومنهم من روى أنها تقف على سطح القصر فى الليلة العاصفة ، فتنادى الصغار فى صوت حاد رفيع ، تحمله اليهم الريح وهم رقود فى مضاجعهم فيهبون مذعورين ويحتمون بأحضان الأمهات .

وأجمع الغلمان الذين يلهون بصيد السمك فى الأمسيات المقمرة ، أن الموج يهيج أحيانا ، ثم ينفرج عنها فى ثياب بيضاء فتدعوهم لزيارة مملكة البحر تحت سطح الماء ، وتعدهم بهدايا عجيبة من الأصداف واللآلىء والمرجان فيفرون خائفين ، وقد حدث ذات مرة أن أصغى لها صبى غر ، فجذبته اليها وخنقته تحت الماء ، فلما أصبح الصبح رآه الناس طافيا على سطح الماء ، أمام القصر ، والعجوز الرهيبة تتفرج من النافذة وفى عينيها بريق لذة وانتصار !

* * *

ولقد سمعت كل الذى يروى من أقاصيص « الست الكبيرة » من غير أن أشغل بها كثيرا ، فلما دعيت الى خدمتها تذكرت فجأة كل هذه الأقاصيص ، لكنى لم أملك فرارا ، فذهبت الى القصر وقلبى يرتجف رعبا ، والأشباح المخيفة التى سمعت بها ، تتراءى لى وتتواثب حوالى !

وقادنى كبير الخدم الى حضرة السيدة ، فألفيتها منحنية على منضدة رخامية أمامها ، وهى تراقب نملة محاصرة بالماء لا تجد منه مخرجا ، وكلما أوشك الماء أن يجف وهمت النملة بالافلات من الحصار ، عاجلتها السيدة بغتة بماء جديد !

لم يبد عليها أنها أحست مقدمنا ، وبعد دقائق انسحب كبير الخدم وخلفنى واياها ، فلبثنا ساعة وبعض ساعة وهى فى شغل عنى تلهو بحصار النملة ، وأنا أحدق فيها وقد نال منى الذعر والاعياء ٠

* * *

ودخل علينا السيد بعد حين ، فتنفست الصعداء ، وكفت هى عن اللعبة القاسية ، ثم نظرت اليه فى تساؤل ، وقد بان عليها المقت والخوف معا ٠٠٠

قال لها فى حزم ومجاملة : ان ظروفا طارئة تحوجه الى الغرف التى تشغلها ، كى يعدها لغد قريب ! فان شاءت فلتنتقل الى الجناح القبلى عند أطراف الحديقة ، ولها أن تصحب معها من تختار من الخدم

لم تجب السيدة ، بل حدقت فيه برهة ثم أدارت وجهها عنه فى غيظ مكبوت ، وبدأت تنظر الىّ ، نظرة بلهاء ، فأحسست أن الحياة تتسرب من دمى ، ، اذ خشيت أن أكون الفتاة المختارة لصحبتها ٠

على أن السيد أنقذنى حين أمرنى بالذهاب الى غرفة المكتبة وجمع الصور المنتشرة على بساطها ٠ فمضيت أعدو وقد أسعفنى ذكائى فى تلك الدقيقة الحرجة ، فأدركت أن ابتعادى عن السيدة حينئذ ينقذنى من الصحبة الرهيبة ، لأنها لم تكن بعد قد عرفت أسمى ،

ولا أحسست وجودى ، فمن البعيد أن تختارنى للقيام على خدمتها .

ولم أكن أعرف أين توجد المــــكتبة ، الا أنى لم أعدم مَن يدلنى عليها ، وهناك ألفيت الصور منتشرة على البساط الى جوار مقعد صغير قريب من الأرض ، فألقيت عليها نظرة عابرة ، فاذا هى تصور طائفة من نساء عاريات فى أوضاع شتى .

أغمضت عينى فى خجل واستحياء ، الا أنى عدت أفتحهما قليلا بين آونة وأخرى ، لأختلس نظرة من كل صورة !

وجاء السيد بعد قليل فحملت اليه الصور ، ثم انصرف عنى لم يكد ينظر الى .

وأبقانى كبير الخدم لأعاونه فى خدمة القصر فلبيت راضية ، لكن رضاى كان مشوبا بانقباض غريب ...

وتعاقبت الأيام وأنا أرى السيد أحيانا يخطر فى أبهاء القصر ، وأتشرف من حين لآخر بالقيام علىخدمته ، وان لم أتشرف يوما بالجلوس فى حضرته وتقبل الحلوى والهدايا من يده الكريمة ...

* * *

على أن شيئا غامضا حجزنى عن السعى وراء ذاك ... لعله شبح « زهرة » التى افتقدتها فى دار الخدمة فقيل لى : « ذهبت ولم تعد ! » فانقبض قلبى حزنا لها واشفاقا من مثل مصيرها .. ولبثت ليالى ذات عدد ، أسمع صوتا يهمس فى أذنى فى سكون الليل البهيم :

« ذهبت ولم تعد ! »



الخاطئة

٦

ثم كانت صدفة من تلك الصدف الغريبة الفذة التى يلقيها القدر فى طريق الحى ليغير بها اتجاهه ويوجه حياته فى طريق اخرى ويقرر مصـــيره ...

مضيت يوما أجمع بعض الزهور والفواكه فى ضحا يوم من أيام الربيع ... كان الربيع السادس عشر من عمرى ، وكانت شمس الصيف الباكر تتألق فى الضحا فتغمر بالدفء كل كائن ، وتبث الحياة فى كل جماد وحى ... ولما فرغت من جمع الزهور ، تسلقت احدى شجيرات المشمش لأختار بعض الثمار الناضـجة ، وحانت منى التفاتة الى شرفة القصر ، فألفيت السيد هناك منحنيا على سور الشرفة ينظر الى متفرسا وعلى فمه ابتسامة عريضة تملأ وجهه ..

أدركنى البهر والاعياء ، فانحدرت عن الشجرة مرتبكة الخطا ، ثم حدث ما لم يكن منه بد .. فقدت زمام نفسى قبل أن أبلغ الأرض فترنحت ثم هويت .

وقبل أن أجمع نفسى لأنهض ، رأيت السيد قد خف الىَّ ، فحملنى بين ذراعيه ومضى بى الى غرفته سريع الخطا حيث ألقانى فى رفق على أريكة وثيرة ، ولبث واقفا يتأملنى وأنا ملقاة الى جانبه خافقة القلب مبهورة الأنفاس ..

***

وانصرفت من حضرته بعد ساعة من زمان ، ويداى مملوءتان بالحلوى والفاكهة ..

***

ثم جاءنى كبير الخدم بعد قليل ، فقادنى الى مكانى الجديد الذى أمر السيد باعداده لاقامتى ، وأبلغنى - فى ابتسامة عريضة - اننى معفاة من العمل فى الدار الأخرى ، لأن السيد قد اختارنى لخدمته الخاصة ...

تلقيت هذه الأنباء السارة ذاهلة : أكان ذهول الفرح بما صرت اليه ؟ أم كان شيئا غير الفرح ؟ لا أدرى .. على أنى لبثت مخدرة الحس بقية ذلك اليوم المشهود ، فلما جن علىّ الليل ، ألفيت فراشى الجديد ينبو بى ، وطاف بى طائف شرد النوم عن عينىّ ، فانثنيت الى قلبى أسأله : فيم انقباضه ووجومه وقد تحقق له حلم الصبا وأدرك الأمل العتيد ؟ .

أجل ... لقد رضى السيد عنى ، وهذا مكانى الجديد دليل على رضاه ، وهذه حلواه الفاخرة شاهدة على اهتمامه بى ...

وتكلفت الفرح ، وأقبلت على الحلوى آكلها ، وأنا أغنى عاليا لأتشاغل عما ألمّ بى من وجوم وانقباض ...

كان شىء فى فطرتى يذودنى عن السيد ، وكانت « زهرة » تتراءى لى فى كل دقيقة أمضيها بعيدا عنه ، وكان القدر الضئيل الذى وعيته من وصاياها ، يشوه علىّ سعادتى الطارئة ، ويحجزنى عن السعى وراء السيد ، على أنه لا يكاد يدعونى الى حضرته حتى أخف الى لقائه فرحة راضية ، قد نسيت زهرة ووصاياها ، وشغلت عن ذلك الصوت الذى كان ينبعث من فطرتى محذرا .

وهكذا اقبلت على حياتى الجديدة ، موزعة بين قلق غامض يفترسنى فى ساعات الوحدة ، وبين غبطة عنيفة تغمرنى حين اكون مع السيد ، فتمحو قلقى وتبدد مخاوفى ...

ومر عام وبعض عام ، وبدا على السيد شىء من الملل والجفاء ،

واخذ ينصرف عنى ويتودد الى فتاة أخرى من بنات الضيعة ، فلم أنكر عليه شيئا من ذاك ...

وكان يدعو الى القصر أحيانا بعض صاحبات له ، فأقوم على خدمتهن مخلصة راضية ، وقد ألبث ساهرة حتى مطلع الفجر لا اضيق بانصرافه عنى اليهن .

الا أن أوقات وحدتى أخذت تطول وتطول ، ورانت على قلبى ظلمة مريبة آكلة ، وبدأت فطرتى تتحرك وتزيح ما تراكم فوقها من صخور وركام ، فغشيتنى كآبة موجعة ، وأنكرت ما كان من أمرى مع « السيد » وبدا لى أن فيه قطعة كبيرة من الخطيئة والاثم .

هنالك سمعت صوتا بعيدا ينادينى ويزين لى الفرار ، فجمعت نفسى لألبى النداء وقد خيل الى أنى فرغت من « السيد » ، وأنى قادرة على المضى الى ذلك القرار التائه المجهول الذى يدعونى اليه الصوت . لكنى لم أكد أفعل حتى رأيت السيد يخطر فى بهو القصر، فوثب قلبى الى فمى ، ومضيت اليه ذاهلة عمياء ، فى اخلاص مرهق وعزيمة شلاء !

***

ورحل عنا « السيد » الى أوربا ذات صيف ، فلبث غائبا أربعة أشهر ثم رجع الينا ، فهرعت الى لقائه ، وأنا أرجو أن أنسى به كل الذى كابدت فى وحدتى الطويلة . وقد ابتسم لى حين رآنى ودعانى الى غرفته ، ولم يكد يخلو بى ويسألنى بعض أسئلة دقيقة غريبة ، حتى أطرق واجما : لقـــد كُنت أحمل فى أحشائى جنينـــا عمره ستة أشهر !

وبعث بى السيد فى اليوم التالى الى امرأة عجوز تقيم فى أطراف الضيعة ، فلبثت هناك حتى وضعت ابنى البكر ، ثم غادرته عائدة الى القصر ...

وبدأت أحمالى تثقل عاما بعد عام ، وشاع أمرى فى الناس بعد ان وضعت ابنى الثالث ، لكنى احتملت صامتة صابرة : اذا كان هذا يرضى السيد فماذا علىّ من الناس ؟

وأوجعنى أن السيد لم يتحدث الىّ يوما عن أبنائه ، ولم يبد عليه أنه يشعر بوجودهم ، على أنى لم أجرؤ على الشكوى : لقد كان كل ما يفعله حقا ولا شىء لى من الأمر ...

قلت له يوما وأنا فى غيبوبة ذاهلة : « ان ابنى البكر يشبه أباه (السيد) كل الشبه » فابتسم ابتسامة صارمة ، ثم ألقى علىّ نظرة مخيفة ، وانصرف عنى متجهما غاضبا ، فأمسكت من ذلك الحين عن ذكر الأبناء ، وبدأت فطرتى تتمرد وتثير فىّ آلام الأمومة الجريحة ، وهبت تدفعنى عن ذلك الذى كنت فيه ، لكنى وضعت أصابعى فى أذنى وأبيت أن أصغى اليها : أى اثم اقترفت وأنا لم أفعل الا ما يرضى « السيد ؟ » ثم انى قد خسرت الناس جميعا وبقى هو لى من دونهم ، فهل أخسره وأمضى ؟ الى أين ؟ لا أين ...

* * *

ودعانى السيد اليه يوما بعد جفوة طويلة احتملتها صابرة ، فغمرنى بعطفه ، ثم ذكر لى أنه خطب فتاة جميلة ثرية من (بنات مصر) ، فهزنى الفرح له وهنأته مخلصة ، داعية له بالسعادة الكاملة ، فأصغى الى دعواتى واجما ثم بعث بى الى كبير الخدم ، حيث علمت منه أن السيد يأمر ــ حرصا على مصلحتى ــ أن أتزوج وأغادر القصر قبل أن تحضر ربته الجديدة .

سألت : من الزوج ؟

فأجاب : اسماعيل ، الراعى الشيخ .

قلت : متى يكون الزواج ؟

قال : فى آخر هذا الأسبوع .

فخفضت راسى فى ذلة وقلت : افعل !

أكنت جديرة بأن أثور كما فعلت زميلة لى من قبل ؟ وفيم الثورة وعلى من أثور ؟ أى حق لى تجاه سيد الأرض ومن عليها ؟ لقد قرر مصيرى فلا مفر ولا عاصم ...

كنت واقفة عند مفترق الطريقين ، فلمحت « زهرة » تنتظرنى فى أحدهما ، ورأيت فى الآخر ، اسماعيل الراعى الشيخ ، فاخترت ذلك الطريق الثانى لأنى أم !

مضيت أهيىء نفسى للمصير المقرر ، وأعانتنى « أم سليمان » على أمرى ، حتى اذا حانت ساعتى تفضل السيد فنفحنى جنيهات عشرة ، وأعطى الشيخ مثلها ، ثم تكرم فأذن لى أن أتردد على القصر للخدمة فيه .

وودعنى متفضلا ، فمضيت فى صحبة الراعى الشيخ الى منزلى الجديد ، وكان كوخا ضئيلا خشنا يتاخم القصر من ناحيته القبلية..

وحملت معى صرة ثيابى ، وصندوقين من الصابون (الصانلايت)، وزجاجة من عطر (القسيس) وجملة من الأساور والعقود البراقة..

وحملت معى فى أحشائى ، الابن الرابع لسيد الأرض ...

* * *

وأصبح الصبح فرآنى الناس فى ثياب ريفية خشنة ، أسوق القطيع الى المرعى كما تفعل الفلاحات الفقيرات اللائى جزعت يوما من مصير كمصيرهن ، وأنفت من السير فى طريقهن .

واستقبلنى الناس استقبالا غير كريم ، لقد تخليت يوما عن موكبهم وتعاليت عليهم ، وهانذى اعود اليهم صاغرة بعد أن صار ما بينى وبينهم بعيدا .. بعيدا ..

وجاءتنى اشاعات السوء مندفعة كالقــذائف : كانت حوائط

القصر تصدها عنى حين أعيش فيه ، فلما نزلت الكوخ ، ضعفت جدرانه الواهية عن صد هذا السيل الجارف من صيحات الغضب واشاعات السوء ..

وأرهبتنى وحشة الفراغ فى حياتى الجديدة ، وثار بى الشوق الى أبنائى ، فاستأذنت الشيخ وجئت بهم ليملأوا علىّ الحياة ويعصمونى من الانهيار ؛ فهاج الناس وانطلقوا فى أثرى كالذئاب العاوية ، حتى اذا أدركونى ذات يوم ، انهالوا على ضربا بالسياط ، فقتلوا الجنين الذى كنت أحمله ، ووقفوا يتفرجون علىّ ، وأنا أخبط فى دم الفريسة البريئة المنكودة .

وكنت أتردد على القصر من حين الى حين أؤدى ما يطلب الى من خدمة ، وألتمس بعض الحماية من غيلان البشر ، فكانت ربة القصر تدفع الى بعض الثياب القديمة وشيئا من الطعام ، وكان السيد يستقبلنى باسما حين أسعى الى غرفته فى غفلة من الرقباء !

أجل .. كنت أسعى اليه بقدمى هاتين ، يقودنى اليه دافع لاقبل لى بدفعه ، وتشدنى اليه قيود رهيبة لا فكاك لى منها : قيود من الخوف والرهبة والرغبة والاثم والعار !

كان سلطانه يلاحقنى كلعنة صارخة ، وكنت أستطيع أن أتحرر منها بالموت ، لكنى أبيت أن أفعل ، واخترت أن أحيا ، لأنى أم ، فكان علىّ أن أدفع ضريبة الحياة ...

* * *

وولد ابنى الرابع فى الكوخ المتواضع بعد أن غادرت القصر بعام وبعض عام ، فأقام له الناس احتفالا قاسيا مخيفا : رجمنا بالحجارة وقذفنا بالرمم والقاذورات ، فواجهت العاصفة ، وانا أرضع الصغير المحتمى فى أحضانى ، وزوجى جالس على عتبة الباب ، يهش بعصاه على غنيماته مطرقا صامتا ...

وجدت بعد ذلك أحداث قاسيات : مات زوجي الشيخ ، وافتقر سيد الأرض ...

كانت زوجه مسرفة متلافة ، تهجر القصر أكثر الوقت لاهية في المدينة ، فاذا جاءت الى الضيعة أحضرت معها جماعة من أصدقائها ، فيمضون الليالي عاكفين على الخمر والورق ، فلما نفد المال ، رهنت الأرض ، على أن مال الرهن ما لبث أن تسرب من بين أصابع السيدة كما يتسرب الماء ...

وغلق الرهن ، وحدد يوم لبيع الضيعة ...

وجاء اليوم المحدد فتمت الصفقة ، وانتقلت الأرض الى مالك جديد ، وكنا معشر الفلاحين ضمن الصفقة المبيعة !! . قبض السيد ما بقي له من ثمن الضيعة ، وخلفه مالك جديد وسيد جديد : على الأرض ، والقصر ، والدواب ، والزراع ...

ولقد شهدت موكب الراحلين من سادة الأمس ، في فجر يوم من أيام الشتاء . وكان مشهدا أليما انفطر له قلبي .

ثم عدت أدراجي لا أنقم على « السيد » ولا أنكر من أمره ما كان .. ان الصفقة الجديدة أكدت حقه عليّ وعلى الباقين من أهل الضيعة . أو لم نكن ملك يمينه يتصرف فينا تصرف المالك فيورثنا من يشاء ويبيعنا الى من شاء ؟ أجل ، وها نحن أولاء ، قد انتقلنا مع الأرض والقصر والدواب ، من مالك الى مالك ... من سيد الى سيد ! !

الكتاب الخامس



حديث الزمن

٧

كان الليل قد أوغل حين بلغت « سميرة » هذا القدر من قصتها وأطرقت صامتة تستريح ، فراحت عيناى تبحثان فى غلس الظلام عن القصر الرهيب الذى شهد المأساة ، فاذا به يبدو لى من بعيد ، كمارد أسود ، يقذف الرعب فيما حوله ، وتجثم ظلاله الحالكة على القرية الهاجعة ، فتكتم أنفاسها .

* * *

واستردت « سميرة » بعض قواها ، فرفعت رأسها وهمت باستئناف الحديث ، لكنى أشرت اليها أن تصمت . لم أكن فى حاجة الى أن أسمع بقية المأساة . لقد شهدت فصولها التالية بنفسى اذ كنت من بين أفراد القافلة التى وفدت على الضيعة بعد أن باعها صاحبها .

وكانت قافلة مجاهدة ، ترود مجاهل الريف وتوغل فى ظلامه وتقيم بين اهليه : تصغى الى الشاكى ، وتطعم الجائع ، وتسعف المريض ، وتنجد البائس ، وتحمى المظلوم .

استقر بنا المقام هناك ، فهالنا ما رأينا من شـــقوة الزراع ، المجاهدين : كانوا يدبون على الأرض كالسائمة ، جياعا أذلة مهزولين ، يشربون ماء عفنا تعافه البهم ، ويشقون طول النهار تحت سياط الفقر والذل والمرض ، فاذا جن الليل ، أووا مع الدواب الى قبور مظلمة تسلبهم شعورهم بانسانيتهم .

لم يكد يستقر بنا المقام بينهم ، حتى أقمنا لهم قرية جديدة ،

وهيأنا لهم فيها حياة صحية بسيطة ، تردهم الى حظيرة الانسانية، ثم أمسكنا بالمعاول ، نهدم القبور المظلمة المتاخمة للقصر .

وعرفت « سميرة » من ذلك الحين ؛ عرفتها فى أقاويل الناس وأقاصيص السمار ، ورأيتها وهى تقف أمام الدنيا وجها لوجه ، وعلى كتفيها أبناؤها الأربعة ، تحميهم وتذود عنهم أذى الناس .

وسمعت أنها جاءت مع من جاء من زراع الضيعة ، تلتمس مأوى لها ولصغارها فى القرية الجديدة ، بعد أن هُدم كوخها القديم ، لكن شيخ الضيعة أبلغها ألا مكان لها هناك : لقد ائتمر بها القوم وراحوا وفدا الى رئيس القافلة ، وأعلنوه أنهم يأبون أن يجمعهم واياها مكان ، فقد زعموا أن اقامتها بينهم تؤذى طهرهم وكرامتهم ، وأوجسوا خيفة على أبنائهم الأغرار من شر غوايتها وضلالها .

وقالت نسوة فى الحى ، ان هؤلاء الرجال ـ القديسين الأطهار ـ ذهبوا الى « سميرة » غداة رحل السيد ، فاستغفروا لذنبهم وتوددوا اليها ، وحملوا لها فاكهة وشايا وطعاما ، والتمسوا أن تضيفهم فى العشاء ، وأن يمضوا السهرة لديها ، لكنها تأبت عليهم ، وردتهم عنها معتذرة فى رفق ، فهاجت ثائرتهم ، وأقسموا لينغصن عيشها ويذيقنها الويل والعذاب .

ولما أصبح الصبح ، ذهبوا الى أولى الأمر فى القرية غاضبين للفضيلة المنتهكة ، ثائرين على هذه الخاطئة الآثمة .

وكان الذى أرادوا : صُدت « سميرة » عن القرية الجديدة ، واقفل الباب فى وجهها ، فأمست طريدة مشردة ، ليس لها ولا لأبنائها على الأرض مكان ...

* * *

أقبلتُ عليها أسألها : فيم قد جئتنى ياسميرة ، هل أستطيع ان أفعل شيئا من أجلك ؟

قالت بعد تردد : نعم ياسيدتى ، تسعين فى أمر عند أولى الأمر منكم ، لعلهم يأذنون لى بقاعة صغيرة تضم صغارى . لقد ولى الصيف ياسيدتى وألم بنا الشتاء ، ولم يعد فى استطاعتنا أن نبيت فى العراء !

قلت وأنا مشفقة عليها راثية لها : ان اجماع القوم على اضطهادك ياسميرة يجعل الأمر صعبا دقيقا . ليت شعرى لماذا يلحون فى مطاردتك ولست هنا بأول أنثى زلت ؟!

فهزت رأسها وقالت فى ابتسامة مرة : لأنى أبيت عليهم ما أبحت للسيد ؛ ولقد راودونى عن نفسى فاستعصمت ، ولو فعلت لقتلنى الاثم ، وأنا أريد أن أعيش ، لأنى أم !

فعجبت لقولها وتساءلت : يقتلك الاثم ؟

فانتفضت انتفاضة ظاهرة وأجابت على الفور وقد أشرق وجهها فى عزة وكبرياء :

لم لا ياسيدتى ؟ انى أعرف الفضيلة رغم الذى زعموا ! على أنى مازلت حتى اليوم أسألهم ما الذى أنكروا منى ؟ كنا جميعا ملكا للسيد ، يعز فينا من يشاء ويذل من يشاء ، ورثنا مع الماشية والقصر والأرض عن أبيه ، ثم باعنا جميعا الى سيد جديد ، لم يسأله أحد عما فعل ، فأين الفرق بيننا وبين الاماء والعبيد ؟

لقد كان للسيد فىَّ ، حق المالك فيما ملكت يداه : نشأت فى أرضه ، وربيت فى قصره ، وعشت معه ما شاء ، ثم تزوجت حين شاء ممن شاء . كان سيدى وولى نعمتى ووالد صبيتى الصغار .

ولكن ما شأن هؤلاء الناس ؟ أى حق لهم علىَّ وما فيهم من رعانى يوما او كف عنى أذاه ؟ أو لم يكونوا مثلى عبيدا لسيد الأرض ؟ ومتى كان للعبد مثل هذا الحق على أخيه العبد ؟

كلا ... لن أكون لأحدهم يوما ، ان المرأة الخاطئة التى يرجمونها بالحجارة ، ويهيلون عليها التراب ، ويسمونها بميسم العار ، هى الأنثى التى وقفوا على بابها بالأمس يستجدونها ، ويلتمسون الاذن بالدخول لديها . وانى لأحتقر فضيلتهم وازدرى طهرهم ، واجد من أمومتى التى زعموها آثمة ، قوة أملك معها أن أوصد بابى فى وجوههم ، معتصمة بكل ما فى هذه الأمومة ، من معانى الطهر والحق والخير والايمان ..

قلت وقد راعنى ما فى ملامحها من قوة وصرامة : اذن فارحلى ياسميرة ، واتركى لهم هذه الأرض وما عليها .

سألت فى حيرة وأسى : الى أين ياسيدتى ؟

أجبت : الى أى مكان ، من أرض الله الواسعة .

فأرسلت « سميرة » عينيها تذرعان الوادى ، وبدا عليها أنها لا ترى ما يجاوز السياج ، ثم هزت رأسها فى يأس ، وقالت فى أنين خافت :

كلا ياسيدتى .. لست أعرف غير هذا المكان .. جئته طفلة ، قد نبذنى أبى ولفظتنى الدنيا ، وكنت أحمل معى ذكريات طفولتى ، واحس حنينا غلابا الى ربوع الجزيرة التى نشأت فيها ، فلما تراخى العهد وطال الأمد ، ألقت السنون غشاء من ضباب على تلك الربوع الحبيبة ، واختفى طيف أبى من أمامى منذ استقر بى هذا المكان . ومن ذلك الحين ، انقطعت السبل بينى وبين ما يتجاوز هذه الضيعة .

ووجمت لحظة ، ثم قالت وهى تشرق بدمعها : أجل ، هذه دنياى .. شهدت أحداث حياتى ، وألقت ظلا من النسيان على ما عداها !

هى دنياى !! فيها تلقيت دروس الحياة ، وعنها اخذت معانى

الفرح ، والألم ، والرغبة والزهد ، والحب والمقت ، والسـعادة والشقاء ! هى دنياى ... تشدنى اليها سلاسل من حديد ، فأنا قطعة منها ، وكذلك هؤلاء الأبناء ، فما لنا عنها سبيل ، وليس لنا الا هاهنا مكان ...

* * *

سعيت كى أجد لسميرة مكانا فى قريتنا فخاب مسعاى ، لقد ائتمر بها رجال القرية وأعلنوا عليها حربا شعواء ، فأيدتهم التقاليد وأسعفتهم الأوضاع ، ولما أصدروا حكمهم القاسى بطردها ، أمنت الدنيا وصدق الزمن ...

ولم أشأ أن أقف الى جانب « سميرة » وأواجه بها هؤلاء الناس، حتى أغتصب لها المكان الذى تريد ، فقد أدركت أنه يستحيل عليها أن تعيش بينهم ، وهم يترصدونها ليمزقوا لحمها ويشربوا من دمها ! لقد حقت عليها لعنة القوم ونبذت بالعراء ، ولن تستطيع مثلى أن تحميها فى مهب العاصفة .

والتمست لها مكانا قصيا فى ضيعة صغيرة من ضياع الوقف ، تتاخم قريتنا من الناحية القبلية ، فاستأجرت لها هناك كوخا يقع فى الطرف الشمالى للضيعة ويواجه القصر من بعيد .

ولم تزرنى « سميرة » من ذلك الحين ، على أنى كنت أراها تضطرب فى الوادى غادية رائحة ، وأمامها غنيمات ترتاد لها المرعى من مكان الى مكان ، وتلتمس لها العشب على شطوط الترع وحواف الغدران ، ثم توردها الى حظيرتها عندما تجنح الشمس الى المغيب .

وكنت أرى الغبار الذى يثيره القطيع من ورائها حين تؤوب الى كوخها او تكر الى المرعى ، فتذكرنى رؤيته بغبار آخر يثيره القوم من حولها ، ويطاردونها به من مكان الى مكان ، لا يعصمها منه عاصم ولا تذوده عنها يدان ..

ومرت أعوام « وسميرة » فى عزلتها تبدو لنا كشبح عابر ، يلوح على الأفق باهتا ضئيلا ، على أن أخبارها كانت تترامى الينا ممن يترددون على ضيعة الوقف لبعض شأنهم ، وكانت تغيب عن الأفق احيانا فيتجدد حديث الناس عنها ، وتستيقظ شكوكهم ، وتثور شهوتهم فى ايذائها ، وتجد بعض عجائز الحى من ذلك مادة ترضى فضول الشبان وحقد الرجال وغيرة النساء ...

ويفتر الحديث ، وتهدأ الثورة ، فننسى « سـميرة » بعض الوقت ، ثم نعود فنذكرها حين نراها تضرب فى الوادى من جديد وترعى أغنامها .

لم يبد على « سميرة » أنها ضجرت بمحنتها ، بل كانت تحمل حطام حياتها المنهارة وتدب على الأرض صابرة متجلدة ، على إنها كانت تذوى وتضمحل ، وقد أكلها السـقم وألح عليها الضعف والهزال ، حتى غدت هيكلا ضئيلا ذاويا ..

وعجب الناس لها أن رأوها تتلقى سهامهم فى ابتسامة هادئة ، وتقف فى مهب العاصفة ووجهها يشرق بنور شاحب غريب . وأرجف نسوة فى الحى أنها اتصلت بملك الجن عن طريق بعض السحرة ، فأمدها بتعويذة عجيبة تحميها من القوم ، فلا تنال منها سهامهم ولا يرقى اليها أذاهم .

على أن نفراً من البدو الرعاة ــ الذين كانوا ينتجعون المرعى هناك من حين الى حين ، ويجهلون مأساة « سميرة » ــ زعموا أنها قديسة مباركة ، ورأوا على وجهها نور الأولياء ، وكلما سخر أهل القرية بزعمهم ، وحدثوهم عن ماضيها الرهيب ، زادوا ايمانا بها وردوا هذه الأراجيف الى ما يمتحن الله به عباده الصالحين المختارين ...

وقد رووا من كراماتها انها مست بيدها الكريمة الطاهرة بعض صغارهم المرضى فبرئوا باذن الله ، ودعت لامراة عاقر فاستجاب الله الدعاء ، وحلت عقدة بعض فتياتهن العوانس فتزوجن ببركة رقية من رقاها المباركات .

٨

والم بنا ذات يوم ضيف شاعر ، وكنت أزعم أن المأساة قد اكتملت فصولها فرحت أرويها ونحن جلوس حول الموقد فى ليلة من أخريات الخريف ، حتى اذا فرغت منها سأل الشاعر : وماذا بعد ؟

قلت : لا شيء بعد . . . انتهت المأساة وأسدل الستار . .

فهز رأسه وقال : كلا يا رفاق ، لم تنته المأساة بعد ، فلا يزال هناك فصل أخير !! ان أبناء « سميرة » لم يظهروا بعد على المسرح لانهم صغار . ولكنهم ينمون مع الأيام ، وعما قريب يرفع الستار ، ويروى هؤلاء الأبناء ، الفصل الأخير من المأساة .

سألنا فى لهفة : ترى ماذا يكون من أمرهم وأمرها ؟؟

فاجاب وهو يحدق فى جمرات المدفأة : سنرى هؤلاء الأبناء وقد اجتمعوا لمحاكمتها . ويومئذ يسألونها عن أبوتهم الضائعة وماضيهم المنكر ، ثم يصدرون حكمهم عليها . من يدرى ماذا يكون الحكم ؟ قد يأتمرون بها فيقتلونها ، وقد يختلفون فيما بينهم فى أمرها ، وقد ينشق بعضهم على بعض بشأنها ، فتكون حرب أخـرى غير التى شهدناها فيما سبق من فصول المأساة .

* * *

ومضت بعد ذلك ايام . . وخرجنا ذات مساء نشيع الضيف فأغرانا جمال الليل بالسير معه الى أطراف المدينة . وسارت بنا المطايا وئيدا وقد بهرنا الليل فأرسلنا نفوسنا تنهل من سحر الوادى وتتزود من جمال المساء . .

وتطلعنا جميعا الى السماء فى نشوة مضيئة غامرة ، ورحنا نصغى الى الشاعر وهو يغنى للقمر والنجوم والليل ، وقد احاطت بنا الأشباح والأطياف ، تصغى معنا الى النشيد الالهى .

وبغتة ، علت صيحة حادة رفيعة فى سكون الوادى ، فانتبهنا من غيبوبة الحلم وأفقنا من ذهول النشوة ، وانطلق بعضنا يسأل عن الخــبر .

« ماتت سميرة ! » :

وقفنا برهة لا نقوى على الحركة امام رهبة الموت ووحشة الليل، ثم جمعنا أنفسنا واستأنفنا السير واجمين مطرقين كأن على رؤوسنا الطير ، حتى اذا بلغنا حدود المدينة ، وقفنا نتصافح قبل أن نفترق..

مددت يدى مودعة ، وحاولت أن أتكلم فما استطعت ، كان هناك شيء يحبس أنفاسى ويعترض مسالك الهواء ..

ضحك الشاعر ضحكة جشاء ، ثم أمسك بغتة وقال وفى صوته نواح وشجن :

« ماتت سميرة ! فليرجمها القوم ان استطاعوا ، فلن تحس لهم من أحد ولن تسمع لهم ركزا ...

« لقد طاردوها من مكان الى مكان ، حتى عصمها الموت منهم وغلبهم عليها ... »

ثم انحنى على الأرض ، وأخذ بيمينه حفنة من تراب ، وراح يتأملها وهو يردد فى سخرية مرة موجعة :

« ظفروا بها حين كانت لها قوة الأحياء ، وعجزت الجدر المشيدة عن حمايتها منهم .

حتى اذا ماتت ، امست فوق منالهم جميعا ..

وانها لترقد جثة هامدة شلاء !

لا يحجزها عن القوم سوى حفنة من تراب ...

كان هذا التراب قذيفة اللعنة عليها فى أمسها الفاجع ...

وهو اليوم ، درع يصد عنها عادية القوم ويحميها من الذئاب !! ».

* * *

ثم اهتز الشاعر فى يقظة مباغتة ، فألقى التراب من يده ، واقبل علىّ يقول فى ابتسامة شاحبة :

هيه .. ! الآن فقط ، انتهت المأساة .

لقد زعمتُ لكِ بالأمس أن أبناء « سميرة » هم أبطال الفصل الأخير ، فجاء الموت وأزاح بيده الرهيبة هؤلاء الأبناء عن المسرح ، وقال الكلمة الأخيرة ...

ثم مضى بها بعيدا ... بعيدا ...

الى وادى العدم ...

وأسدل الستار !

* * *

ومضى الشاعر وهو يردد :

رحمك الله ياسميرة .

لم تكونى آثمَ الخاطئات فى هذه الدنيا ...

قصص من القرية

الذئاب



« وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت »

عندما بشر بمولد أنثى اسودت الدنيا فى وجهه ، وخرج من داره متعثر الخطو ذاهل اللب شارد النظرات ، وحملته قدماه الى الطرف الأدنى من زراعته الواسعة ، فوقف هناك يدير عينيه فى ذلك الملك العريض ، والحسرة تمزق قلبه وتفرى كبده .

وشردت تأملاته ، وأفلت زمام وعيه ، فاذا به يهيم على وجهه فى طوايا الماضى الذى ولى وراح .

على أن ذكرياته لم تمض به الى أبعد من عامه العشرين ، اذ كان كل ما قبل ذلك العام مبهما ضائعا يغشاه ضباب كثيف .

ورأى نفسه يخرج من هذه القرية ذليلا مهانا ، فيساق الى « القرعة » لأنه لم يكن يملك واحدا وعشرين جنيها يفتدى بها نفسه من « الجهادية » التى كانت حينذاك ضريبة مفروضة على الفقراء وحدهم .

وكان الاقطاع اللئيم قد سلب الجندية شرفها حين جعلها سمة مميزة لأولئك المساكين الذين يعيى أحدهم أن يفتدى نفسه بجنيهات معدودات ، كما كان الاحتلال الخبيث قد مسخ معنى « الجهادية » حين سخر المجندين لخدمة اغراضه الاستعمارية وساقهم كالقطعان الى حيث شاء من المجازر ، وحرم عليهم الجهاد النبيل فى سبيل الوطن .

وما كان « عليوة » ليفقه شيئا من هذه المعانى الكبار ، ولا كانت عيشته الخشنة الغبراء بالتى تزهده فى المصير المبهم المكتوب على المجندين الأذلاء ، فقد أشبعه الفقر والعوز ذلا ، وسلبه الحرمان والتشرد كل معانى الكرامة التى يعتز بها بنو آدم ، على أن الذى

أوجعه هو أن يلمح فى اللحظة التى سيق فيها الى التجنيد ، شابا ماجنا من أولاد الأغنياء ، يمد يده فى رقاعة فيربت على ظهر اخته « خضرة » التى كانت واقفة هناك ، ترنو الى أخيها « عليوة » بعين دامعـــة .

وأحس المسكين بأنياب الذئب وهى توشك أن تنهش لحم الفريسة الضائعة التى لم يعد لها بعد أخيها من يحميها من عدوان الضوارى ، فاندفع نحوها يريد أن يخنقها بيديه قبل أن يرحل ، ليضعها فى حمى القبر حيث لا ينالها غاصب مسعور ولا يطمع فيها ذئب ضـار ولا ينبحها كلب قذر ، لكن حراســـه أمسكوا به دون غايتـه ، ومضوا به بعيـــدا حتى أودعوه معسكر التجنيد ضائع الحيـلة مهيض الجناح .

وتمثل أخته فى أتعس الأوضاع ، وظل طيفها يلاحقه ويعرض عليه صورا شتى مما صارت اليه بعد أن تركها نهبا مباحا لذئاب البشر ، فاستحال غضبه لها نقمة على الفقر الذى مزق عرضه وأذل رجولته ، وباتت هـــذه النقمة تؤرق لياليه الطوال وتغزو أيامه الموحشة بأحلام اليقظة ، فراح يهذى بلعنة الفقر ، ويتمثله أمامه عدوا شاخصا . وقد طاب له حينا أن يصوب نحو هــذا الشبح البغيض قذائف مدفعه فى ساحة المعسكر ، وكلما خيـل اليه أنه أصاب منه مقتلا ، عاد العدو المرهوب منتصبا أمامه وعلى سحنته البغيضة ابتسامة ساخرة .

ونقلته ذكرياته الى المساء المشئوم الذى عاد فيه الى القرية بعد غيبة سنوات خمس ، ليجد فى ثراها بقية عفنة من جثة «خضرة» التى عاث فيها الذئب ، فبات المسكين ليلته عاكفا على هذه البقية ينبشها بأنامله ، وقد غاض دمه وجمدت عيناه وتصلبت ملامحه

وماتت مشاعره ، فلما دنا الفجر خرج من القرية متسللا كاللص ، ومضى شريدا ضالا ، لا يدرى الى اين ..

* * *

ونسيته القرية كما نسيت أخته قبله . حتى عاد اليها بعد عشر سنين فلم تكد تعرفه .

وانى لها أن تعرف الصعلوك الضائع ، فى ذلك الرجل الوجيه الثرى !؟ بل أنى لها أن تلمح وراء الثياب الفخمة الغالية ، ذاك المسكين الذى لم تعهده ارتدى ثوبا سليما الا يوم نزعوا عنه رداءه الممزق البالى ، وألبسوه « بدلة السلطة » ؟!

واذ قال قائل من أهلها :

ـ ما أعجب الشبه بين الوافد الثرى وبين « عليوة » الصعلوك الطـريد !

أجابته عشرات الألسن فى نفس واحد :

ـ سبحان ربك فى علاه ، يخلق من الشبه أربعين ..

وسهرت القرية ليلتها ولا حديث لها الا عن هذا الشبه العجيب بين الصعلوك الذى كادت تنساه ، وبين ذلك الوجيه الثرى الذى رسا عليه مزاد الضيعة ، ودفع من ثمنها عشرة آلاف جنيه عدا ونقدا ..

وصاحت احدى النسوة :

ـ عينى عليك ياخضرة ! لو أن الله الذى أعطى شبيه أخيك كل هذا المال ، أعطاكم منه واحدا وعشرين جنيها لا أكثر ، لتغير مصيرك التعس .

فزجرها فقيه القرية قائلا ووجهه الى السماء :

ـ اتقى الله ياولية ! سبحانه ، قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملام.

على أن أحدوثة هذا الشبه لم يطل بها الوقت ، فما هل نور

الصبح حتى جاء النهار بأعجوبة أخرى جديدة ، محت كل ما نسجه السمار فى ليلتهم عن الشبه بين الثرى والصعلوك !

فقد ذاع فى المنطقة نبأ لم تلد الليالى أعجب منه ولا أغرب !

وطاف ذلك النبأ يدور القرية جميعا ، ثم انتقل الى الغيطان فما ترك هنالك مخلوقا دون أن يؤكد له أن مالك الضيعة هو « عليوة » بلحمه ودمه وعظمه !

وبدأت القرية من جديد تحوك الأساطير حول هذه الأعجوبة ..

فمن قائل أن « عليوة » وقع على كنز خفى من كنوز الفراعين فى « منقباد » فباعه لأجنبى من هواة البحث عن الآثار ، بألوف من الجنيهات .

وآخر يزعم أن هذه الثروة جمعها « عليوه » من التستر على مهربى المخدرات عبر الصحراء الشرقية طوال السنوات العشر التى عمل فيها جنديا بسلاح الحدود .

وثالث يؤكد عن مصدر ثقة ، ان « عليوه » تعرف فى العريش باسرائيلى يزيف النقود بمهارة فائقة ، بحيث تفوت على أى صيرفى خبير ، وقد اتخذ المزيف من الجندى الفقير « عليوة » عينا له على السلطة ، وبدا لتصريف البضاعة الزائفة ، فخرج هذا من العملية ، ببضعة ألوف من الجنيهات استثمرها فى التجارة بالسوق السوداء .

ورابعة من عجائز الحى تكذب هاتيك المزاعم ، وتحلف بالله أن تابعا لها من الجن أتاها بالخبر اليقين ، فقد حدث أن طلعت بنت « سلطان الجن » من مملكتها السفلى فى رحلة لها بالبيداء ، فرأت الجندى الأسمر يقف وحده مع الليل البهيم ، يبكى أخته التى أضاعها الفقر ، فرقت الأميرة لحاله وأمرت أتباعها فحملوا اليه ثروة من كنوز سليمان !

وسخر كهل متنور من خرافة العجوز الحمقاء ، مؤكدا ان ليس فى الأمر جان ولا شبه جان ، وانما هى غنيمة ظفر بها « عليوة » عندما طارد نفرا من الصهيونيين كانوا يحاولون التسلل من مصر بأموالهم ، وقد دفن « عليوة » غنيمته فى مخبأ مجهول بالصحراء حتى عاد اليه بعد أن أمن العيون والأرصاد ، واطمأن الى ان احدا من زملائه لا يرتاب فيه .

وقد بلغت هذه الأقاويل كلها سمع « عليوه » فألقى بها وراء اذنيه فى غير مبالاة ، وماذا كان يعنيه مما قيل ويقال ، وقد غدا مالكا لأكبر ضيعة فى الأقليم .

وانه ليذكر فى وقفته تلك ، كيف تنافست الأسر العريقة على التقرب منه والتودد اليه ، وقامت بينها حرب خفية ومعلنة لتظفر به صهرا ، وقد طاب له أن يشهد المعركة المحتدمة حوله ، وأن يزيد ضرامها اشتعالا ، دون أن يفكر فى الزواج ، بل اتخذ من صيد النساء بشبكته الذهبية لعبته المفضلة وهوايته الأثيرة ، ووجد لذته الكبرى فى اللعب بهذه الدمى البشرية التعسة التى يلقى بها القدر فى شباكه الوهاجة الصفراء .

وكانت أولى ضحاياه ، ابنة غريمه القديم الذى افترس « خضرة » .

أما ضحاياه الأخريات فما يكاد يحصيهن عدا ..

حتى تورط أخيرا فتزوج من صبية بدوية أعياه أن يصيدها ، وهذه هى تضع له أنثى !

وخيل اليه أن القدر يعد طفلته لمصير فاجع ، انتقاما للضحايا اللواتى عبث بهن لاهيا ..

وعادت به ذكرياته من حيث بدات ، فلاحت أمامه « خضرة »

فى ثوبها المدنس وعرضها الممزق تحف بها أولئك الضحايا الأخريات..

ثم اختلطت الصور وتشابهت ، فاذا به يرى فيهن جميعا ، طفلته الوليدة التى خرجت الى الدنيا منذ لحظات !

* * *

وأدركه الليل وهو مغرق فى شروده يحدق مرتاعا فى الصور المختلطة والأشباح المتدافعة ، فولى هاربا وقد امتلأ منها رعبا !

وسرى متخبطا فى موج من الظلمات ، والأشباح تطارده وتأخذ عليه كل سبيل ، والكلاب العاوية تنبحه فتتمثل له « خضرة » من جديد ، فى مسراها الضال الرهيب وسط الوحل والظلام .

ثم لاح له آخر الأمر شعاع من ضوء يسطع من نافذة الوالدة فى بيته ، فاتجه نحوه وعيناه مشدودتان اليه كأنما يخاف أن يفلته فيضل الطريق ..

وبلغ مأمنه ، أو هكذا خيل اليه حين دخل بيته وأضاء كل مصباح فيه ، ليذود الأشباح المطاردة ، لكنه ما كاد يلمح طفلته حتى فح بصوت غليظ أجش :

« خضرة » ؟ .

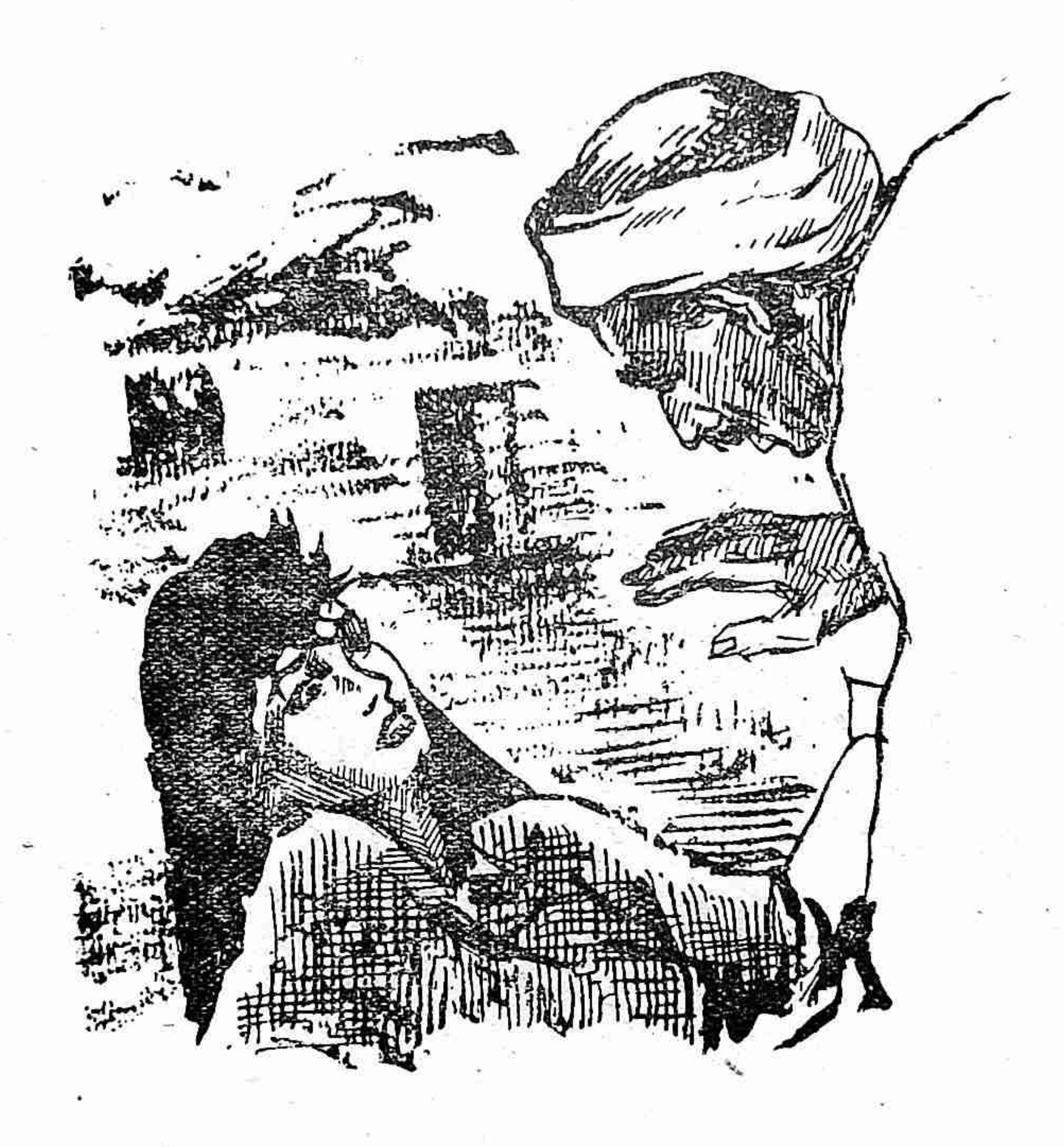
ذلك أنه رأى فى وليدته ، أخته الضائعة ...

ووقف يحدق فيها مأخوذا . ثم امتدت يده الخشنة الباردة فأطبقت على عنق الصغيرة ولم تفلتها الا جثة هامدة !

وتنفس مرتاحا ، وأحس كأنما انزاح عن صدره حجر ثقيل ظل يكتم انفاسه عشرين سنة أو تزيد ..

ولم يفكر قط فيما قد يحدث بعد ذلك ، بل عاش فى لحظته هذه ، يستمرىء طعم انتصاره هذه المرة ، اذ سبق الذئاب الى طفلته ، كما اشتهى أن يفعل بأخته من قبل ، فأعياه أن يصل اليها قبل فوات الأوان ، وحالت بينه وبينها القيود والأغلال .

عالية



« وتحسبونه هيّنا ، وهو
عند الله عظيم .. » .

مضى يشق احشاء الليل وحيدا صامتا ، فعرفت فيه القرية (علوان) ابن (الحاج فراج) شيخها الكهل ، الذى سيق الى السجن منذ ايام ، مخضب اليدين بدماء ابنته (عالية) .

ولم تكن القرية قد فرغت بعد من الحديث عن مصرع الفتاة التى طالما زها بها أبوها واعتز ، وكانت أمها قد ماتت عنها وهى طفلة، وما لبث أبوها أن تزوج بأخرى مجهولة الأصل ، فكفل الطفلة خال لها يقيم بالمدينة ، حيث أتاحت لها الاقامة الطويلة هناك ، حظا من النعومة والتهذيب والثقافة لم يتح لسواها من بنات المنطقة ، اذ كانت الوحيدة التى نالت الشهادة الابتدائية وأوشكت أن تنال شهادة (الفنون الطرزية) ، لولا أن أباها أنكر عليها فجأة أن تظل بعيدا عن عينيه ، بعد أن نضج صباها ، فاستردها من بيت خالها بالمدينة ، وامسكها فى الدار تحت سمعه وبصره .

وأدرك أهل القرية ان زوجة أبيها هى التى اوعزت اليه بحجزها فى الدار ، حين ملأت أذنيه بأقاصيص عن (فجور) بنات المدينة وخلاعة (تلميذات المدارس) حتى أراح (الحاج فراج) نفسه أخيرا فسد الباب الذى يأتيه منه الريح .

* * *

وشاعت الشائعات عن قسوة الحياة الريفية على ربيبة الحضر، وبخاصة مع امراة أب ، اشتهرت بشراسة الطبع وحدة المزاج والاسراف فى الأنانية والتهالك على ارضاء أهوائها الجامحة . وقيل فيما قيل ، انها ما فتئت منذ عادت الفتاة ، تستثير غضب الأب عليها بالالحاح فى الحديث عما أحدث التعليم ، وطول الاقامه فى المدن ، من أثر سيىء فى أخلاقها . لكن الأب ظل يدافع عن فتاته ، ويدفع عنها كيد

زوجته ما استطاع ، واثقا انها انما تحقد عليها ، لرفضها الزواج من أخ للزوجة فاسد متحلل ، لفظته الملاهى والحانات بعد ان استنفدت آخر قطرة من حيويته ورجولته .

حتى روعت القرية ذات أصيل بمصرع الفتاة الجميلة بيد ابيها الشيخ ، وسيق القاتل الى المركز حيث اعترف بجريمته على الفور مؤكدا أنه لم يكن يظن بفتاته سوءا على كثرة ما سمع من زوجته ، الى ان وقع فى يده خطاب مرسل الى الفتاة ، فلما قرأه روع بما فيه من نداء فاجر ، يلح على (عالية) أن تهرب عائدة الى المدينة لتستأنف علاقة آثمة بصاحب لها هناك .

وحين واجهها بالخطاب ارتجفت رعبا واشمئزازا من غضبه . ثم لاذت بصمت مريب مزق أعصابه وأطار رشده فراح يهزها فى عنف وهو يهدر مطالبا باسم صاحبها المجرم ، فكان جوابها أن قالت فى احتقار وهى تحاول التخلص من قبضة يده :

« دعنى ، فلست أبى . »

وهنالك لم يتمالك نفسه ، فظل يضغط بيديه على عنقها ، حتى سقطت جثة هامدة .

واحيلت الجثة الى الطبيب الشرعى فجاء تقريره يشهد بأنها قتلت عذراء طاهرة لم يمسها سوء .

وقال الذين شهدوا الأب القاتل عندما تلا عليه المحقق تقرير الطبيب الشرعى ،انه تهاوى على الفور جاحظ العينين اخرس اللسان مشلول الحركة فحملوه الى مستشفى السجن ميئوسا من نجاته .

وجاء ابنه من اقصى الصعيد يسعى الى مسرح الجريمة ، وكان قد اعتزل اباه بعد زواجه الثانى ببضعة اشهر ، مرحبا بفرصة

(التجنيد) فلما أتم المدة المفروضة ، كره ان يعود الى القرية،والتحق بمعسكر (منقباد) فى أعالى الصعيد .

ومضت أعوام ذات عدد ، لم تره القرية خلالها غير مرة واحدة ، حتى وقعت المأساة الفادحة التى أزهقت روح الأخت الحبيبة فى ريعان صباها ولوثت يد أبيه الشيخ بالدم الطاهر المسفوح .

وراته القرية فى ذاك المساء المعتم ، يعود من مستشفى السجن بالمركز الى دار أبيه متشحا بعباءة سوداء جامد الملامح ، زائغ البصر . وأبى أن يتقبل فى فقيديه عزاء .

وجمدت عيناه فلم تذرفا دمعة واحدة ، وان ظل مع ذلك يغدو الى المركز والمستشفى كل يوم ، ثم يؤوب فى المساء وحيدا صامتا ، فى هدوء اليائس من استرجاع ما فات ، المستسلم لما هو آت .

ورحمه القرويون فتركوه يمارس رحلته اليومية دون ان يرهقوه بصحبتهم أو يلحوا عليه بالعزاء ، بل كان أقصى ما يقوله أحدهم حين يلقاه ساريا فى احشاء الظلمة بعد مقابلة المحامى ، وعيادة أبيه المشلول :

ــ شد حيلك يا علوان ، آدى حال الدنيا ...

ثم يمضى عنه ، غير منتظر ردا ...

* * *

لكن اشاعة خبيثة ما لبثت أن سرت هامسة فى القرية ، تفسر جمود الفتى تفسيرا بشعا ، وتعلن أن المقام قد اطمأن به الى جانب زوجة أبيه فى الدار ، وما رحلته اليومية الى المستشفى ، والمحامى ، والنيابة ، الا ذراً للرماد فى العيون .

ووجمت القرية لما سمعت ، فقد كان الفتى الجندى ــ كما كانت أخته وامه من قبل ــ رضىُّ الخلق أبيض السمعة طاهر الذيل .

ولعلها ما كانت لتصغى الى اشاعة خبيثة كهذه لولا أن رابها من زوجة الشيخ السجين المريض ، اسرافها فى التزين الى حد غير مألوف فى الريف ، وبخاصة فى مثل تلك الظروف التعسة التى أعقبت المأساه .

وقد حدثوا أن المرأة بعثت الى المدينة من جاءها خفية بزجاجة من (عطر القسيس) وعلبة من المسحوق الأبيض الذى تطلى به الغوانى وجوههن ، وثوب من الحرير الوردى ، قيل انها تلبسه كلما امنت من أعين الرقباء .

وراحت نسوة من الحى يرصدن خطاها عن كثب ، ويحصين حركاتها وسكناتها دون أن تشعر بذلك ، وأكثرن من زيارتها متظاهرات بالعطف على شبابها الذى يطفئه الحزن ، ويذبله المصاب من أجل جريمة لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ثم عدن الى القوم يروين الأعاجيب عن شعرها اللامع المعطر ، وعن وجهها الزاهى الذى يحمل آثار طلاء بالأبيض والأحمر ، وزادت احداهن فأقسمت أنها لمحت تحت ردائها الأسود ذيل قميص من الحرير الوردى .

ووجد القرويون فيما سمعوا من هذا كله متعة مثيرة ومادة شهية للسمر ، شغلتهم حينا عن شيخهم الراقد فى المستشفى ينتظر مصيره التعس . وتوارت نظرات العطف والرثاء للشاب الثاكل ، وحلت محلها نظرات أخرى فاحصة مستريبة ، تلاحقه فى غدوه ورواحه كانما تلتمس ما يؤيد الذى شاع عن صلته بزوجة أبيه .

حتى اذا ارتوت القرية مما سمعت ، ولم تعد تجد فيه جديدا يثيرها ، ضاقت بفتاها ، وانكر أهلها مقامه الذى طال بينهم ، وتشجع احدهم فسأله ذات مساء وهو عائد الى الدار :

ــ اما تنوى ياعلوان أن تعود الى عملك ، ام لعل المقام طاب لك

فى الجنة ، فنبذت حياة الجندية الخشنة ، وعولت على الا ترجع الى (منقبـــاد) ؟

ولأول مرة أجاب الفتى :

ـ اجل ياعم ، لن أعود الى منقباد ، لكنى راحل غدا على كل حال .

* * *

وجاء غد فرحل الفتى ..

رحل ساعيا على قدميه الى مركز البوليس ، حيث اسلم نفسه هناك ، معلنا انه خنق زوجة أبيه واذاقها طعم الميتـــة التى ذاقتها اخته (عالية) ظلما وعدوانا .

ولم تصدق القرية أذنيها . فقد كانت تنتظر بين لحظة واخرى ، ان يفر الشاب بزوجة أبيه الى مكان بعيد مجهول ، ينجوان فيه من مطاردة الأعين المستريبة ، والألسن التى لاكت سمعتهما وأنكرت مقامهما معا تحت سقف واحد .

فهل حقا قد قتلها ؟

أجل ، وهذه جثتها ملقاة على ارض القاعة حيث صرعت (عالية) البريئة من قبل ، وهذا شعرها المضمخ بالعطر تفوح منه رائحـــة نتنة ، وهذا وجهها المطلى بالمساحيق قد علته زرقة غبراء كئيبة ، وجحظت فيه العينان المكحلتان .

اذن فقد كانت الاشاعة الخبيثة عن صلة الفتى بالزوجة العابثة كذبا مفترى ، فما طاب له المقام بالدار قط ، وما كان جموده عن رضا واستسلام .

* * *

وحانت ساعة محاكمته ...

وبكر اهل القرية فسعوا الى ساحة القضاء مع مطلع الصبح

يريدون أن يقفوا بجانب القاتل فى الساعة الحرجة ، وليس فيهم من لا يود أن يستغفره وأن يكفر عن الاشاعة المسمومة الظالمة .

والتفوا حوله داعين ، حتى اذا فتحت الجلسة سمعوا ما أذهلهم :

سمعوا أن الفتى لم يكد يطلع على الخطاب المشئوم الذى أطار لب أبيه حتى عرف فيه خط يدٍ طالما كتبت اليه .

وذكر وكيل النيابة المحقق ، أن المتهم قدم اليه تسعة خطابات بنفس الخط مرسلة اليه من زوجة أبيه ، مليئة بعبارات عامية مبتذلة ، تشكو هجر الفتى وصدوده ، وتعتب عليه أنه لا يحضر فى أيام العطلة الى القرية لكى يريح المعذبة لفراقه .

وفى خطاب منها الحاح فى الدعوة لقضاء عطلة العيد الكبير فى الدار ، حيث يذهب أبوه بعيدا لأداء فريضة الحج .

وجىء بابن حلاق القرية ، فشهد بأن الزوجة استكتبته هذه الخطابات جميعا لقاء أجر معلوم ، كما استكتبته خطابا الى (عالية) قبل مصرعها ، ثم أجزلت له العطاء نظير ذهابه الى المدينة ليبعث الخطاب من هناك الى (عالية) فى دار أبيها .

ووصف محامى المتهم ، كيف تفننت الزوجة الآثمة ــ منذ جاءت دار الشيخ ــ فى اغراء ابنه الفتى ، حتى آثر أن يهجر القرية كيلا يثير فضيحة فى الدار ، ثم وصف كيف تلقت الزوجة عودة (علوان) بعد مصرع أخته بترحاب حار ، وكيف أسرفت فى التودد اليه واللهفة على قربه والالحاح فى اغرائه ، وهو يكظم حقده ويكبت غضبه رحمة بأبيه الشاكل المشلول ، وأملا فى أن تكشف له الزوجة العابثة عن سر الخطاب الذى ارتاب ــ منذ سمع حديث أبيه ــ فى أن لها صلة به ويدا فيه .

ثم كان أن اطلع على الخطاب ، فروعه أنه مكتوب بالخط الذى يعــرفه .

وتساءل المحامى : هل فى طاقة بشر يقف موقف (علوان) أن يتمالك وعيه وأن يلجم أعصابه ويضبط انفعاله ، وان يشل يده فلا تمتد الى عنق الآثمة التى عبثت بشرف ابيه ، وعرض اخته ، ثم اضاعت حياتهما وحياته جميعا ؟ .

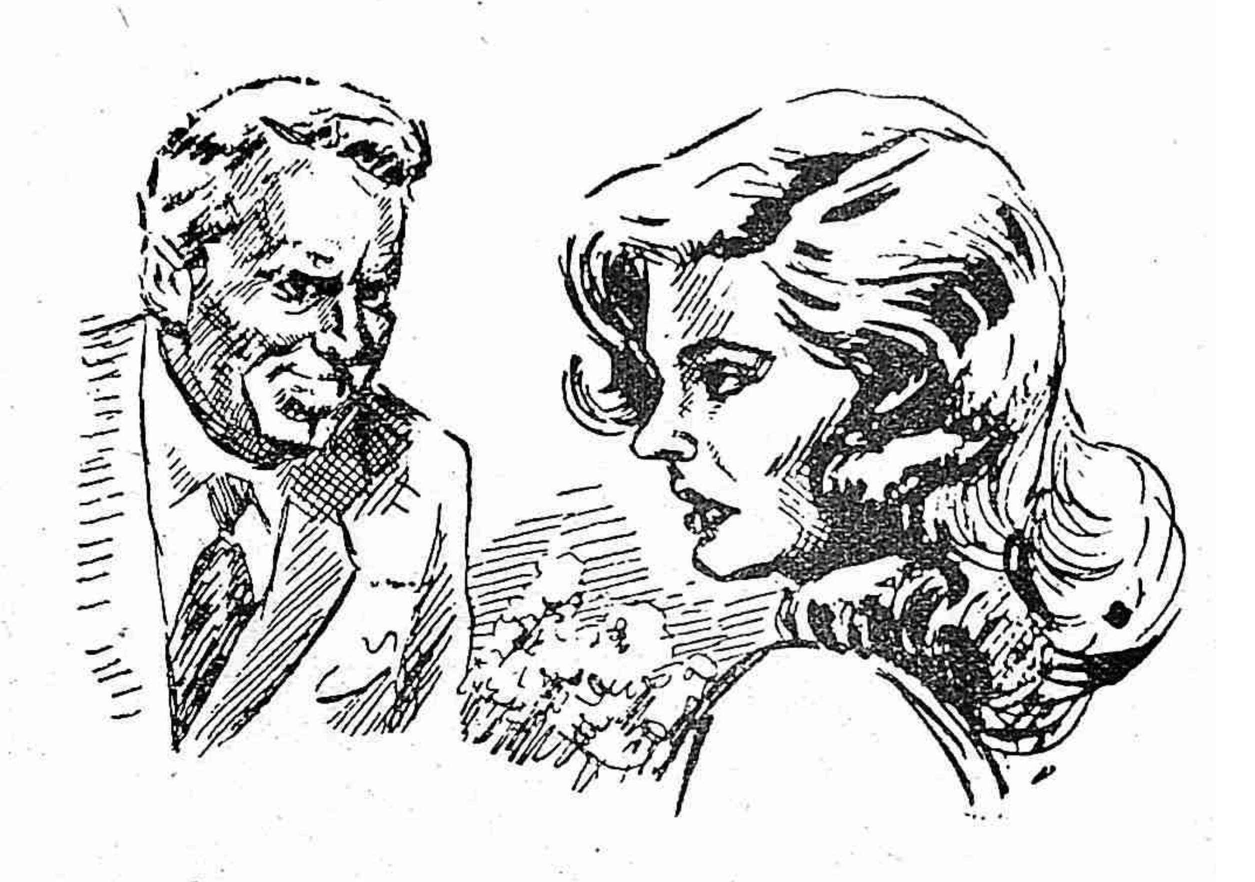
هتف السامعون جميعا :

ـ كلا .

أما القضاة فغالبوا عواطفهم وداروا تأثرهم ولاذوا بالقـانون يلتمسون عنده الكلمة الحاسمة ، ثم عادوا فأعلنوا حكمه على القاتل بالسجن سبع سنوات .

واستسلم (علوان) لحراسه وهم يعودون به الى عربة السجن، على حين وقف أهل القرية واجمين لا يستطيعون حراكا ، ثم اندفعوا فجأة يريدون أن يلحقوا بالبطل الشهيد ، فذادهم الحراس فى رفق ، ثم مضوا به بعيدا فألقوه فى غيابة السجن ...

الوارثة



((وكانت موقنة أنه أعجز من أن يفر
من تلك الجحيم التى تفننت فى ابداعها .
اذ أن (الطين) الذى ورثته ، قد ربطه اليها
بسلاسل غلاظ لا فكاك منها ولا نجاة !))

عندما أعلن الخادم مجيء مفتش الصحة ، شمل المخدع صمت مترقب وتطلعت العيون الى الطبيب الشاب وهو يخطو متئدا فى سمته المهيب ليعلن كلمة الطب فى وفاة السيد الميت .

ومزقت الصمت شهقة خافتة مكتومة ، ندت عن شابة كانت تقف هناك فى زاوية من زوايا المخدع قريبا من فراش الراحــل ، فاتجهت اليها الأنظار حينا ، ثم ما لبثت أن تحولت عنها حين بدا الطبيب يفحص الجثة المسجاة .

واذ ذاك همت الشابة بأن تنسحب من الغرفة ، لولا قوة نفسية قاهرة آمرة عطلت ارادتها فأمسكتها الى مكانها بادية الشــحوب والضعف ، فبقيت حيث هى ، مطرقة الرأس ، خافضة الطرف .

ولم يطل بها الموقف ، فقد كانت مهمة الطبيب قصيرة المدى ، اذ الوفاة طبيعية لاشك فيها ولا ارتياب ، وهكذا أذن لأهل الميت بتشييع فقيدهم ، ثم انصرف دون أن يزايله اتئاد حركته ووقار مهنته ، وان بدا عليه أنه يبذل جهدا واضحا لكى يتجاهل تلك التى شهقت ساعة رأته ، غير أنه ما كاد يصل الى سيارته حتى ألقى نفسه على مقعدها الخلفى واجما يتذكر .

***

وفى الطريق من قصر الثرى الميت ، الى مدينــة المنصورة الواقعة على بعد اربعين كيلو مترا ، عادت به ذاكرته ــ على الرغم منه ــ الى ماض غير قريب حيث كانت هذه الشابة التى لقيها اليوم على غير انتظار ، تشتغل خادمة فى بيت أسرته .

ولم يكن يعرف يومئذ عنها الكثير ، فقد شغلته دراسة الطب

فى العاصمة عن الاهتمام بتوافه المخلوقات أو الالتفات الى ما يجرى فى عالم أسرته المحدود من صغير الأمور والأحداث ، وقد اعتاد ان يقيم العام الدراسى كله بالعاصمة ، فاذا أهل الصيف ، نزح مع ابويه الى ساحل البحر فى مصيف (رأس البر) حيث تشغله هناك مجامع الزملاء والأصحاب .

وهكذا مضى عام فى اثر عام ، وهو يجهل ما يعرفه أكثر أهل المنطقة عن حياة (زهيرة) الخادمة الشقية ، التى كان صباها الناضر شؤما عليها ، وجمالها الحى اثما لا يغتفر ..

وقد ظلت تنتقل من دار الى دار ولعنة الصبا والجمال تلاحقها حيثما راحت ، وحقد (السيدات) من ربات البيوت التى عملت فيها، يثير حولها عاصفة ظالمة من الريبة والشك ، حتى استقر بها المقام أخيرا عند أسرة تاجر كريم رضيت أن تؤويها على الرغم مما تناثر حولها من شائعات السوء .

وكانت سيدة الأسرة ، كهلة طيبة متدينة تتقى الله فى أمثال هذه الطريدة المضطهدة ، وترى من الاثم أن تصغى فيهــا الى أراجيف وظنون .

وهكذا هيأت السيدة للفتاة مستقرا ومأوى ، دون أن تخشى فتنة جمالها على زوجها الشيخ الزاهد ، أو ولدها الوحيد الذى كان يدرس الطب بعيدا فى العاصمة .

لكن السيدة الكريمة ماتت غريبة فى الأراضى المقدسة ، ومن تلك اللحظة بدأ مكان (زهيرة) فى الدار ينبو بها ، فلقد ارتاب الابن الطبيب فى شعور أبيه نحوها ، وخشى ان هى بقيت الى جواره فى وحدته وترمله أن ينتهى الأمر بهمــا الى زواج يلحق بالأسرة عار الضــعة

وهوان المصاهرة . ولعل (الخادمة) تلد لأبيه ابناء صغارا يشاركونه الميراث المنتظر ، ثم يبقون بعد هذا وصمة تلطخ مستقبله بأخوة مهينة من أم خادمة ».

وفى قسوة لا تعرف الرفق أو الرحمة ، طرد الطبيب (زهيرة) من البيت الذى ظنت أنه ملاذها ، وكان هذا آخر عهده بها ، فلم يرها الا اليوم ، عندما ذهب ليفحص الميت الثرى ، فتجاهلها وجهل موضعها فى القصر .

* * *

ووقف تفكيره فيها عند هذا الحد ، على حين بقيت (زهيرة) هناك الى جانب فراش الراحل تستعيد ذكرى ما لقيت من شقوة العيش والتشرد بعد أن طردها الطبيب من بيت أبيه ، فعولت على الا تلتحق بخدمة البيوت بعد هذا أبدا ، وانتبذت مكانا قصيا عند أطراف المدينة ، حيث أقامت مع أرملة فقيرة كهلة ، تشتغل بصنع المكانس من القش والألياف ، ثم تبيعها لنفر من صغار الباعة الجائلين .

وقد وجدت (زهيرة) فى الأرملة الفقيرة صديقة وراعية ، كما وجدت فيها هذه ، خير من يعينها على عملها التجارى المتواضع ، اذ تعودت (زهيرة) أن تقوم كل أسبوع بجولة مرسومة تطوف بها حول المنطقة ، حيث مزارع الأرز والذرة وبساتين النخيل ، ثم تعود آخر النهار محملة بمادة رخيصة تكفى رصيدا للمصنع اليدوى نحو عشرة أيام .

وشعرت الفتاة بشىء من الرضا عن حياتها الجديدة التى تنعم فيها بما لم تنعم به قط من حرية وانطلاق ، وبدا عليها انها لن ترضى عنها بديلا ، وكانت فى جولاتها الأسبوعية تعود متعبة الجسم ، لكنها

لا تلبث أن تسترد كل نشاطها وحيويتها وراحتها ، عقب ساعات من النوم العميق ...

***

حتى خرجت ذات يوم على عادتها الى بساتين النخيل ، وحان موعد ايابها ولم تعد ...

ومضى الليل كله وصديقتها العجوز مسهدة الجفن قلقة البال ، فريسة لآلاف من الهواجس والشكوك ...

وشاع الخبر فى الحى مع مشرق الصبح ، وظل القوم يرجفون بالظن فى تعليل غيبة الفتاة . فمن قائل أن شيطانا من الانس ترصد خطواتها واختطفها ، وآخر يزعم أنها سئمت ذلك العيش الفقير الجاف ، فانحرفت تلتمس المتعة والمال .

وثالث يقسم أنها تعرفت فى جولاتها بشاب أغواها ، فاستجابت له ...

ورابع يرجح أن قدميها حملتاها بعيدا ، فلم تستطع الأوبة فى موعدها ، فباتت عند بعض من تعرف ، ولا بد من أن تئوب آخر النهـــار ...

وخامس يحسب أنها أصيبت فى حادث ما ، اصابة أعجزتها عن المسير ، وسوف ينجلى الأمر عن قريب .

وسادس ..... وسابع ...

***

وقد انجلى الأمر فعلا بعد أيام ثلاثة ، لكن على غير ما أرجف الظانون والمرتابون .

وذلك أن رجلا اقبل من اقصى المنطقـــة يسعى نحو الأرملة العجوز ، حاملا اليها رسالة من الفتاة الغائبة تقول انها بخير حال ،

اذ التحقت بالعمل فى قصر سيد الاقليم ، ولا يعكر راحتها فيه سوى تألمها لفراق الصديقة الطيبة .

وفوجىء القوم بهذا الذى سمعوا ، وأغلقت الأرملة مصنعها وعادت مع الرسول لتطمئن بنفسها على « زهيرة » .

ثم رجعت فى اليوم التالى ، تؤكد للجيران أن سيكون لفتاتها شأن أى شأن ! .

ولم يشك أحد فى أنها تلمح - أو ترنو - الى احتمال ظفر الفتاة الشابة ، بأكثر من عطف الشيخ الثرى .

وأقاموا أياما ينتظرون خبرا من القصر ، لكن الأيام امتدت فصارت أسابيع وشهورا دون جديد .

كل الذى ترامى اليهم ، أنها تعيش فى ظل السيد الثرى معززة مكرمة ، وتشرف على كل صغيرة وكبيرة من شئون قصره ، ثم لاشىء أكثر من هذا ...

ومضى عليها فى القصر عامان ، بدا عليها فيهما من آثار العزة والنعمة ما فاض على صديقتها الأرملة ، وعلى أهل الحى جميعا .

❊ ❊ ❊

ثم كانت المفاجأة التى أعقبت وفاة الثرى .

أو لعلها لم تكن مفاجأة ، الا لأن القوم قد انصرفوا عنها منذ حين ، لما طال عليهم أمد الانتظار ، ليسمعوا أخيرا أن « زهيرة » كانت زوجة شرعية للسيد الراحل ، وان بقى زواجهما فى طى الكتمان حتى حان الأجل .

أما كيف حدث هذا ، ومتى ، فضاعت تفصيلاته فى النبأ الأخير ، وهو أن ميراث زهيرة من زوجها ، قدر بمائتين وخمسين فدانا من أجود أراضى الاقليم .

ومن ذلك الحين ، أصبحت الوارثة محط الأنظار ، وحديث اهل المنطقة جميعا .. فلم تكد تقضى عدتها ، حتى تناقلوا انباء الذين تقدموا يلتمسون يدها من سراة المنطقة وطلاب الثراء ، غير انها ردتهم عنها واحداً بعد الآخر ، ولبثت ترتدى ثوب الحداد عاما بأكمله ، حتى ظنوا أنها آثرت أن تترمل ما عاشت ، وفاء لولى نعمتها ..

* * *

لكنها لم تفعل ، بل نزعت الثوب الأسود عنها عقب احياء ذكرى مرور العام الأول على وفاة الراحل الكريم ، فكان هذا اعلانا عن زواج قريب .

ترى من ذلك الذى اختارته « الوارثة » من بين خطابها العديدين؟

قيل انه « الطبيب » الذى نبذها بالأمس فى احتقار خشية أن تصمه بأخ ، أمه خادمة .

وكذب الناس الخبر ، فما كانوا يجهلون الذى ذاقته « زهيرة » من اذلال الطبيب ، لولا أنها ابتسمت لسذاجتهم ، وأكدت أن ليس بينها وبين الزواج الجديد الا أن يفرغ الطبيب العزيز من اجراءات فصم العلاقة التى تربطه بخطيبة له عريضة النسب ، لا تملك أكثر من ثلث (الطين) الذى تملكه الخادمة الوارثة .

والغريب أن « زهيرة » هى التى كانت تذيع هذا ، وتملأ الأفق به ، من غير أن تتنكر لحظة لماضيها الشقى الذليل ، بل بدت شديدة الحرص على تذكره وذكره ، كأنما كانت تجد فى ذلك لذة ومتعة .

والواقع أن الأمر لم يكن عندها مجرد متعة ، وانما أرادت أن تنتقم فى اشتفاء من ذلك الموقف المهين الذى لم تنسه أبدا ... موقف الطبيب وهو يرجمها ظالما ، ثم يلفظها من بيت أبيه كأنها قطعة من الدنس .

* * *

وتم الزواج المنتظر بين الوارثة ، والطبيب الذى كان غريمها بالأمس .

وشهدت حياتهما المشتركة صورا بشعة من صور ذلك الانتقام المشتفى ، فما كان يمر يوم واحد ، دون أن تشعر زوجها الطبيب بالخزى أمام أصدقائه وزملائه ، من سلوكها الذى حرصت فيه على ان تتقن دورها كامرأة محدثة النعمة ، حقيرة المنبت وضيعة النشأة، فاذا ما أبدى الطبيب اعتراضا أو ضيقا ، اعتذرت بأنها كانت ـ كما يعرف ـ خادمة ذليلة .

ووعدته مائة مرة أن تحاول تهذيب سلوكها ، لكنه الوعد الساخر الذى ينتهى كل مرة بالتظاهر بالعجز عن مقاومة عادات راسخة ، وفطرة مستحكمة ، ووارثة قاهرة ...

وقد نصح لها ـ فيما نصح ـ أن تقطع صلاتها بماضيها الحقير، وأن تتجنب الاتصال بمن عرفت أيام تجولها لجمع القش والألياف، فتعده بأن تحاول ، ثم لا أكثر من الوعد .

وكانت موقنة أنه أعجز من أن يفر من تلك الجحيم التى تفننت فى ابداعها ، اذ أن (الطين) الذى ورثته قد ربطه اليها بسلاسل غلاظ لا فكاك منها ولا نجاة .

* * *

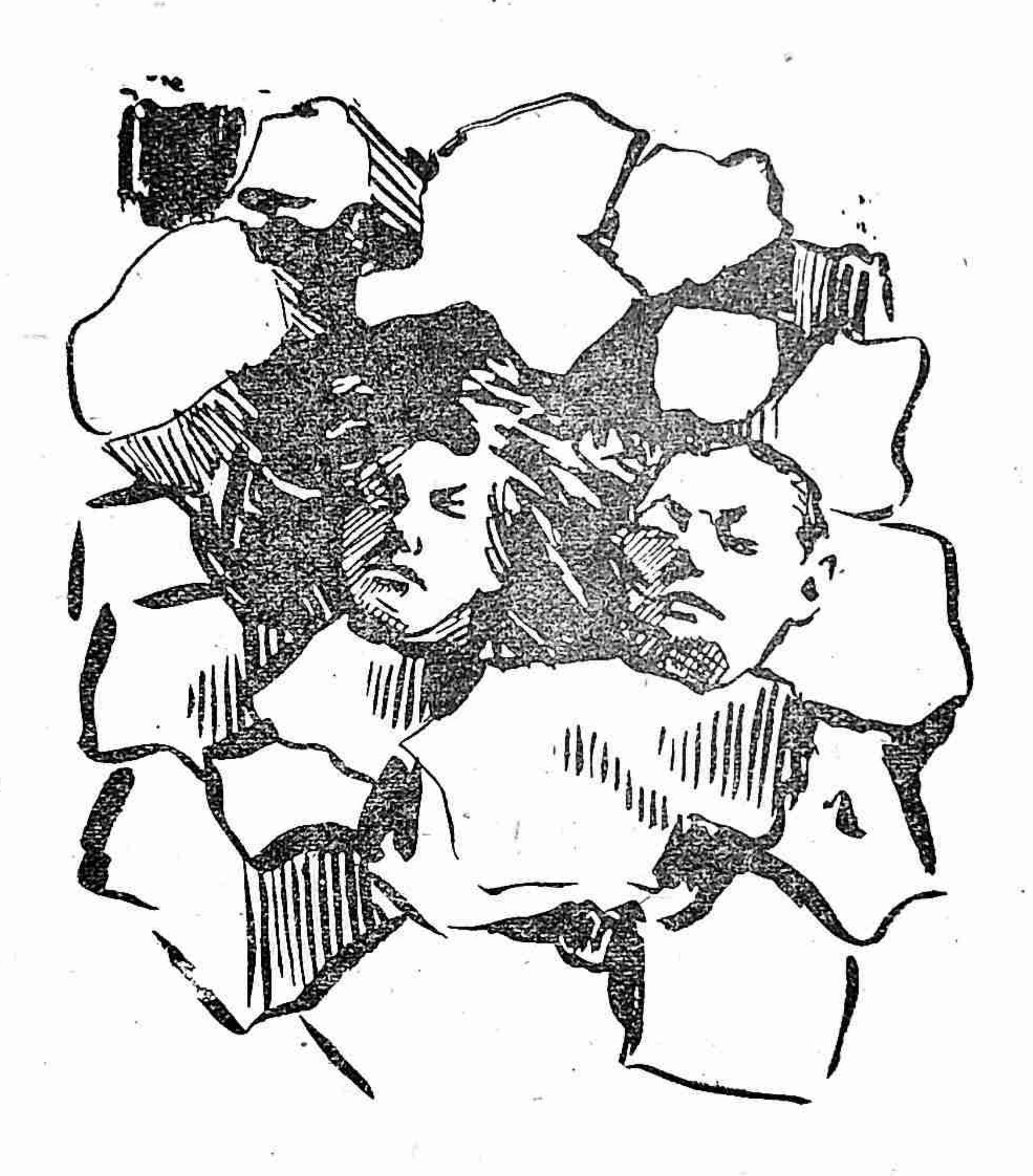
حتى أنهكه التعذيب فتمزقت أعصابه من أثر ذلك السم البطىء الذى لبثت زوجته الخادمة الوارثة ، تجرعه اياه قطرة قطرة ، فعول ـ فى لحظة جنون كافر ـ أن يضع لعذابه ذاك حدا ، دون أن يجعل الوارثة تفلت منه بميراثها الضخم .

وسولت له نفسه الملتاثة ان يجرعها سما يقضى عليها فى بطء ،

لكن ذكاءها وحذرها غلبا ارتباكها وخياله ، فنجت دون أن يمسها أذى ، وظفرت بالطلاق منه بعد أن شفت نفسها من الاذلال القديم ، وبلغت من تأديب (السيد الطبيب) وتعذيبه ما تهوى ...

ثم أسدل الستار على هذا الفصل من القصة ، ليرفع بعد حين عن الوارثة فى زى جديد : أنيق مهذب مترفع ، وعن طبيب مسكين منبوذ قد خسر الدنيا والآخرة ...

تحت الأنقاض



تحية لأمهات الشهداء
فى المدينـــة الباســلة

لم ارها فى حياتى غير مرة واحدة ، حـــين مررت فى صيف عام ١٩٥٣ بمدينة بور سعيد وزرت بعض أقاربى هناك ، وكانت جارة لهم ، تترد عليهم بين الحين والحين التماسا لمعونتهم فى تربية ولدها الوحيد اليتيم الذى تدخره لريب آلزمان ، وترجوه سندا لشيخوختها الواهنة العاجزة .

وقد سمعت يومئذ الفصل الأول من قصتها المثيرة : نشأت فى بيت طيب بأحد النجوع النائية فى أطراف الصعيد ، وســارت بها الحياة هادئة وديعة حتى نزل بالنجع شيخ دجال ، فتن قومها جميعا فأباحوا له الحمى واستسلموا له صاغرين مسحرين .

وقد اختار « عزّه » أجمل عذارى النجع ، عروسا له ، فزفها اليه أهلها فى ليلة عيد ، وقد أسعدهم أن تكون ابنتهـم هى التى اصطفاها ولى الله المبارك دون بنات الناس جميعا ، غير أنه ما لبث أن رحل بها فجأة الى مكان مجهول ، وظل يوغل بها فى متاهات الصحراء مشردا لا يقر له قرار ولا يطمئن به مكان من الأرض ، حتى انتهى بها المطاف معه الى احدى المغارات التائهة فى جوف الصحراء الغربية، وهناك أصغت فى رعب ساحق الى اعترافه الرهيب بأنها لا تحل له ، اذ هى مسلمة وهو يهودى ، هارب من حكم الاعدام !

وجمد الدم فى عروقها ، فتصلبت فى مكانها مشلولة التفكير معطلة الحواس ، ثم لم تفق من ذهولها حتى كانت تساق مع المجرم الى نقطة البوليس مكبلين بالأصفاد ، اثر معركة عنيفة استنفد فيها الشقى كل ذخيرته من السلاح .

وأظهر التحقيق انها ضحية تعسة من ضحاياه ، فبرئت ساحتها واخرجت من السجن لتواجه الدنيا وحيدة غريبة ضائعة ...

ووقفت فى وسط التيه تنظر فى ذعر عن يمين وشمال ، والى الأمام والخلف ، فلم تجد حولها الا المهمه القفر ، تائه المعالم مبهم المسالك ، فتهالكت هناك على الرمال ، مطأطئة الرأس فى خزى ، لا تجرؤ أن ترفع عينيها الى السماء بعد ما لحقها من اثم الزواج المحــــرم ...

وهمت بالانتحار ، دون أن يصرفها عن الموت خوف العذاب فى الآخرة ، فما كانت تطمع فى النجاة من الناس بعد الذى باءت به من عار ، وكادت تفلح فيما همت به ، لولا أن أدركها فى اللحظة الأخيرة ، رجل كريم من الجنود الذين طاردوا الشقى المحتال ، وعرفوا مأساتها معه ، فمد اليها يده ومضى بها الى المأذون حيث عقد زواجهما على سنة الله ورسوله ، ومن ثم حملها الى بيته فى رفق ومواساة ...

وما زال بها : يأسو جراحها ويهون عليها شعورها بالخزى من ذنب لا يد لها فيه ، حتى أفلح أخيرا فى اقناعها بأن رحمة الله التى وسعت كل شىء ، قد تداركتها فى لحظة اليأس الكافر لتحميها من الضياع وترد عليها نعمة الايمان .

وأمهلتها الدنيا ريثما استعادت زهو شبابها وعزة طهرها ، ثم حملها تيار العيش مع زوجها الى بور سعيد ، حيث ودعها هناك وانطلق مع الجيش الذى اشترك فى حرب فلسطين ، وقد أقسم اليها قبل أن يمضى ، لينتقمن لها من عصبة الدجال الأثيم الذى سمم عيشها واغتال صباها وكاد يقذف بها الى الهاوية ...

واقامت « عزة » تنتظر أوبة زوجها ، ولكنه تخلف هنالك على ثرى « الفالوجة » شهيدا ...

ولم تحطمها محنة فقده ، اذ كان عليها أن تعيش من أجل ولدهما الوحيد الذى تركه ابوه فى حضنها وديعة غالية ...

وكان ولدها يستقبل عامه الثامن عشر يوم لقيتها فى بور سعيد منذ بضع سنوات ، أما هى فكانت تدنو من الشيخوخة بخطوات وئيدة ، متشبثة بالحياة هاذية بحلم الثأر .

واذكر انى قلت لها يومئذ :

ـ هونى عليك ياعزة ، وحاولى أن تنسي ما فات ، فانى لأخشى أن تفسدى الحياة على ذلك الشاب ، بطول ما تتحدثين عن ثأر مزدوج لأمه وابيه ، والغريم الأول قد لقى حتفه ، والآخر مجهول .

فهزت رأسها وهى تقول :

ـ كلا ، بل ان ولدى ليعرف غريمنا ، فكل واحد من العصبة الصهيونية الغادرة عدو لنا .

سألتها :

ـ فهل يرضيك أن ينطلق وحيدك ذات يوم الى وكر العصبة سعيا وراء ثأره ، فيلقى مثل مصير أبيه ؟

فما راعنى الا أن أجابت فى اصرار :

ـ أنا صعيدية ، ولمثل هذا تلد نساء قومى أبناءهن !

* * *

وغادرت « بور سعيد » الى بحر الشمال ، وطيف «عزة» يتراءى لى طوال الأيام والليـــالى التى أمضيتها فوق الموج ما بين مصر وروتردام ، ثم ما لبث الطيف أن غاب وتوارى وسط زحمة المشاهد الجديدة التى لقيتنى فى أقصى الشمال ...

حتى كانت معركة « بور سعيد » فذكرت « عزة » اول من ذكرت من أقارب لى وصواحب فى المدينة الباسلة ، فكأنما كنت أراها بعينى وهى تعثر آخر الأمر على غريمها المطلوب ، وتقدم وحيدها لليوم الموعود الذى عاشت تنتظره سنين عددا !

وتمثلتها هناك ، تهب من مرقدها على دوى القذائف الراعدة ، فتلوح لها على البعد قطعـــان من ذئاب صهيون العاوية ، تتجمع فى الساحة الشرقية متربصة ، فى انتظار اللحظة المترقبة التى يفتح لها فيها حلفاؤها الأنذال ابواب المدينة المصرية ، لتعبث فيها وتنهش قلب الوطن العربى ، عدوها الألد ...

وتتابعت الأنباء المثيرة عن النضال الظافر ، فكأنما كنت اجد « عزة » فى كل أم هناك ، وكانما كنت أجد ولدها الوحيد فى كل بطل وشهيد ، من هؤلاء الذين اصروا على ان يعيشوا كراما او يموتوا كراما ، واسترخصوا الحياة فداء للوطن ...

* * *

وأمس لقيت من حدثنى عن « عزة » وولدها ...

كانت تحتفظ بسلاح زوجها أمـانة عزيزة ريثما يكبر ولدها ويشتد عوده ويقوى ساعده ، فلما تعرضت بور سعيد للعدوان المثلث الغادر ، أخرجت « عزة » سلاح الشهيد ، وأسلمته لابنها ثم دفعت به الى خط النار ...

ومضت أيام رهيبة عصيبة ، والأم تعيش فى دوامة المعركة ، ترنو بعين قريرة الى ولدها وهو يثأر لها ولأبيه ، ويذود عن الحمى.. حتى حوصر أخيرا بكتيبة من جند الأعداء ، أعياهم أمره فأهابوا بأمه ان تنصح له بتسليم سلاحه ، وأنذروها بأن يدمروا البيت عليها وعليه ان لم يستسلم .

واذ فهمت مايقصدون نظرت اليهم بعينين يتطاير منهما الشرر ، ثم صاحت فى انـكار : ثكلتكم امهاتكم ! أنا أنصح لولدى بتسـليم سلاحه ؟ خاب فالكم .

ثم التفتت الى ولدها فملأت عينيها منه وهو يفرغ رصاصه فى قلب واحد من الأعداء ، وتلبثت مليا قبل ان تهتف :

ـ مت يا ولدى ، وتحيا مصر !

واختلط هتافها بدوى كالرعد انهار البيت على اثره ، وغاب شخصهما فى سحابة من الدخان ، لم تلبث أن تكشفت عن انقاض متراكمة ، اختلطت بها أشلاء مبعثرة لاثنين من الفدائيين الشهداء .

ومضى السفاحون ، تاركين من ورائهم هذه الأنقاض المباركة ، لتبنى مصر بها حياتها الجديدة ...

* * *

وفى الملأ الأعلى ، تلاقت أرواح ثلاث ، لأب وأم وولدهما ، بعد طول تفرق واغتراب ...

بنت العمدة



« ... لا تاخذه سنة ولا نوم ! »

عندما لقيتها مصادفة فى غمار العاصمة ، أقبلت عليها مشوقة أحييها فى لهفة وكأنى عثرت بها على صباى الغرير .

أما هى فترددت برهة قبل أن تأنس الى ، وكأنها خشيت أن تبدى لهفتها قبل أن تستيقن من صدق اقبالى عليها .

ومن تلك اللحظة ، تشبثت كل منا بصاحبتها ، فما عاد يمضى شهر دون أن نلتقى ، فنخلو الى ذكريات صبانا الحلو ونستعيد رؤى ماضينا الخلى الذى ولى وراح .

وبدت صحبتنا لمن حولنا غريبة نوعا ما ، فقد كان ما بيننا حد بعيد ، غيرأنى لم أر فيها غيررفيقة الحداثة وزميلة الصبا الباكر . وخيل الينا أننا لن نعود فنفترق ، أللهم الا أن تضرب بيننا يد الزمن فتفرقنا فتفرقنا على الرغم منا .

حتى كانت أمسية ساجية من أمسيات هذا الربيع ، وقد خرجت أودعها بعد أن أمضت صدر الليل فى ضيافتى . وتلبثنا برهة فى الحديقة نتساءل متى يكون اللقاء التالى ، وبغتة رن فى مسمعى صوت عواء مبحوح ، كأنه حشرجة كلب يحتضر ، فأجفلت أصغى واجمة ، على حين مضت « حسنة » فى ثرثرتها غير ملقية بالا الى هذا العواء الأليم .

واذ تنبهت الى اجفالى وشرودى تضاحكت تقول :

ـ لعله كلب ضال شريد ، عثر بقطعة من العظم فلم يصبر على معالجتها بل التهمها متعجلا ، فوقفت فى حلقه لا تتزحزح .

فانكرت أذناى صوتها ، وعدت أحدق فى وجهها فاذا بها تبدو لى على ضوء المساء الشاحب ، جامدة الملامح ، منكرة المعارف ، ممسوخة الخلقة .

قلت وأنا أخفض بصرى فرارا منها :

ـ لقد ذكرنى هذا النباح اللاهث المكتوم ، بعواء « الخرساء » !

فأجفلت هى بدورها ، وسألت : وكنت قد نسيت ؟

ثم لم تنتظر جوابا ، بل جمعت نفسها واستأذنت فى الانصراف قائلة :

ـ الى الملتقى .

فأجبت دون تفكير : وداعا ! .

ولم أتبعها بصرى وهى تولى بعيدا ، بل أبت الى مخدعى وما يزال لهاث الكلب الجريح يملأ سمع الليل .

* * *

أجل ، كنت قد نسيت !

نسيت فى غمرة ابتهاجى بلقـــاء « حسنة » أنها فجعت والدة ضعيفة عاجزة، فى طفلتها الوحيدة !

وتراءى لى المشهد الرهيب فملأنى رعبا !

فهناك فى ملعبنا بالقرية ، كنا نمرح لاهيات ، وقد وقفت غير بعيد منا صبية مسكينة : ترنو الينـــا فى لهفة ظمأى ، وكلما همت بالاقتراب منا ، أفزعتها صيحة زاجرة من « حسنة » بنت العمدة فولت مذعورة تبكى .

وتكررت المحاولة ، حتى ضاقت بها « حسنة » فأنذرتها بالموت اذا سولت لها نفسها مرة ثانية ، أن تطمع فى مشاركتنا ، وهى الفقيرة الضائعة التى هجرها أبوها وانطلق ساعيا وراء « غازية راقصة » وفدت على القرية ذات مســـاء ، فسلبت لب الفتى الغر ، وســـاقته وراءها مكبلا بسلاسل غلاظ لا يملك منها فكاكا .

وترك من ورائه هذه الطفلة جنينا فى أحشاء أم مسكينة لا أهل لها ولا مال ، فخرجت بحملها تكدح وراء لقمة العيش ، حتى اذا ناءت به وأعياها أن تعمل ، تسولت تستجدى ما يمسك الرمق ، الى أن وضعت طفلتها فعادت تستأنف الكفاح الذليل المرير !

وكانت تتردد أحيانا على دار العمدة تلتمس الخدمة ، تاركة طفلتها ضالة فى الطريق ، فما كان السادة ليأذنوا لها أن تصحبها معها ، حتى اذا آبت من عملها آخر النهار راحت تفتش على طفلتها فى الأزقة والدروب والغيطان ، الى أن تعثر عليها فتعود بهـا الى كوخها ، لتطعمها وتدفئها وتهيىء لها من حضنها مرقدا .

وكان ملعبنا الحافل يجذب الطفلة الضالة فتسعى اليه بالرغم منها ، وانها لتعلم ما ينتظرها من سخط « بنت العمدة » وغضبها ، ولكن الطفلة عجزت مع هذا عن قهر رغبتها فى اشتهاء الفرجة علينا والاقتراب من ملعبنا ، فكان العقاب صارما بشعا !

ولم يدر بخلدى قط وأنا أسمع « حسنة » تنذر الصبية بالموت ان هى جرؤت على عصيان قرار الحرمان ، أنها جادة فى ذلك الانذار ، حتى وقعت الكارثة فكأنما دهمتنا على غير ترقب أو انتظار .

غدونا الى ملعبنا ذات أصيل نحتفل بأرجوحة جـديدة جاء بها « العمدة » من العاصمة الكبيرة ، مصر أم الدنيا ! لم تكن « حسنة » قد جاءت بعد ، فاذا بالصبية المسكينة تتسلل الى الملعب ، تسوقها قوة قاهرة غلابة ، لا تملك لها دفعا . واذ رأتنا ننظر اليها فى عطف ورحمة ، دون أن نبدى ضيقا بها أو ازدراء لها ، نسيت نفسها وراحت تلهو وتمرح كذلك ، حتى بوغتنا بصيحة ذعر ، فالتفتنا فاذا بحسنة قد امسكت بالصبية من شعرها ، وراحت تجرها بعيدا عن الملعب فى قسوة بالغة وغيظ جامح . وحسبنا أن الأمر لن يعدو ابعاد الصبية عنا ، فعدنا الى ما كنا آخذات فيه من لهو ولعب وما يخطر ببال احدانا ،

أن « حسنة » سوف تقذف بالطفلة اليتيمة الى جوف الترعة ! حتى راعتنا ضجة مفاجئة مختلطة الأصوات ، جعلتنا نعدو نحو الترعة الكبيرة لنعرف ما الخبر .

وهناك ألفينا الصبية المسكينة قد أخرجت من الماء جثة هامدة باردة ، متقلصة الملامح تعلوها زرقة غبراء ، وقد أكبت عليها أمها تعوى ملجمة اللسان ، قد أخرستها الصدمة .

وجاء رجال العمدة فانتزعوها فى قسوة ماردة ، وخيم على القرية سكون واجم يمزقه من حين الى حين ، عواء الخرساء ·

ولبثنا بضع ليال وهذا العواء الأليم يذود الكرى عن أجفاننا ، ثم خرس الى الأبد مخلفا وراءه صدى جريحا ممزقا ما زال يتردد مل‌ء الفضاء العريض حتى هبت القرية كلها تطلب الثأر للصغيرة الشهيدة ·

وحاولت القرية ما وسعها الجهـــد أن تثير اهتمام رجال الادارة بقضية الضحية البريئة ، فأعياها أن تجد منهم من يصغى الى « ثرثرة فارغة عن مخلوقة تافهة ، غرقت قضاء وقدرا » !

ولم تجد القرية أمام هذا الجمود الا أن تصبر على مضض ، وتكل الأمر للمنتقم الجبار ،

* * *

وحدث بعد حين أن أصيب العمدة بداء خبيث عضـــال ، فتك به على مهل ، فلم يمت الا بعد أن استنفده السقم وأذله المرض حتى كانت صرخات توجعه تسمع فى جوف الليل ، مختلطة بالصدى البـــاقى من عواء المفجوعة الخرساء · فرأت القرية أن الله قد انتقم لطفلتها الضائعة وان ظلت مع ذلك تمطر قبر الظالم باللعنات !

ولم يبق لأهله من بعده هناك مقام ، فرحلوا عن المنطقة ·

وبيعت أرضهم وتفرقوا ·

وصمت الصدى الحزين فلم يعد يلم بالقرية ، وهجمت عيون أهلها بعد أن ألح عليهم القلق والسهاد ، وطوى الزمن الفاجعة فيما طوى ، وعفى على ما بقى من آثارها بجديد من أحداثه ومآسيه .

أما شهود المأساة ـ وأنا منهم ـ فقد حملتهم دوامة الحياة على متنها الدائر فبعثرتهم ذات اليمين وذات الشمال ، وطحنت منهم من طحنت ، وشغلت من بقى بهموم دنياه .

ولقيت « حسـنة » فما ذكرت ضحيتها المسكينة ، ولا لمحت فى اهابها « بنت العمدة » التى قذف بها غرورها وكبرها وجبروت قومها وراء انسانية الانسان ، بل وجدت فيها رفيقة الصبا فحسب ، حتى كان هـذا العواء اللاهث الذى سمعته يتردد فجأة فى المساء الساجى ، فلمع صداه فى ضوء المساء الشاحب ، كنصل حاد ، مزق الستار عن كل ما طواه الزمن فى متاهة النسيان !



هذي بضاع النـــاس معروضة

فعاشروا العـــالم أو فارقوا !

لم تكن ذات حظ من ثقافة أو جمال ، فقد نشأت فى الريف قبل أن يغزوه نور العلم وتتسلل اليه أشعة المدينة ، وأبت أسرتها أن تبعث بها الى المدينة لتتعلم ، اذ كان خروج البنات وقتذاك أمرا منكرا فى تلك البيئة ، كما كان تعليمهن يلقى عليهن ظلا من غضاضة وامتهان ، أثرا لمخلفات العصر التركى الذى جعل أول مدرسة مصرية للبنات ، - أنشئت فى عهد محمد على - وقفا على الاماء الحبشيات ثم اليتيمات المعوزات !

ومن هنا لم تأس « غُنية » على ما فاتها من تعلم ، ولا شاقها أن تسير مع فوج الطليعة الذى بدأ طفولتها يخرج لأول مرة الى ما وراء أسوار القرية سعيا وراء الشعاع الجديد . كان حسبها أن ترى فى هذا الفوج ، بنات مأذون القرية وحلاقها الصحى ، وفقيه الكتاب ، والمقرىء الذى يطوف بالدور كل صباح لتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم ... كان حسبها أن ترى هؤلاء البنات فى فوج الساعيات الى مدرسة المدينة ، لتزهد فى الأمر كله وتخرجه من نطاق اهتمامها ، فما كان لمثلها أن تندمج مع بنات الفقراء أو تدور معهن فى فلك واحد ، وهى التى تعيش من ثراء أهلها فى عز عريض .

انما الذى كان يشغل تفكيرها حقا ، هو ألا يكون حظها من الجمال كفاء حظها من الغنى والشبع ، ولعلها لم تلق الى الأمر بالا فى مستهل صباها ، فقد كانت من السذاجة والغرور بحيث يفوتها ادراك ما للجمال من أهمية وخطر فى سوق البنات ، حتى اذا ما تزوجت لداتها واترابها جميعا ، وتركنها وحدها تسير فى الحلقة الثالثة من العمر ، أحست فجاة ، فى شىء من المرارة والقهر والحسرة ، أن ما فاتها جد كثير .

ولم يغن عنها ثراء أسرتها شيئا ، بل لعله كان مسئولا الى حد كبير عن محنتها ، فلكل بنات الريف فرصتهن للزواج المبكر دون استثناء .

حتى ذوات العاهات فيهن ، يجدن من يرضون بهن زوجات ، و (غنية) تعرف كثيرات من الفلاحات ، تزوجن على علاتهن ، وفيهن الشوهاء والعوجاء ، وما كانت (غنية) وهى السوية الخلقة العادية الشكل ، لتعدم خاطبا أو اثنين أو أكثر ، لولا أن قام ثراء أسرتها يصد عن بابها الخطاب المتواضعين الذين لا يبغون من المرأة الا أن تلد الأولاد وتشارك فى حمل أعباء العيش التى ينوء بها كاهل الرجل منفردا ، فأما الذين يكافئون مصاهرة أهل (غنية) الأثرياء ، فما لهم فى مثلها رغبة ، اذ يطلبون عادة فى الزوجة المختارة شيئا أكثر من تلك المطالب المتواضعة ، وهكذا ضاعت « غنية » بين من يرضون بمثلها وليسوا كفئا لها ، وبين من يزهدون فيها من الاكفاء لفقرها فى الجمال .

وشعرت بالمرارة تسرى مع ريقها فلا تدع طعاما يدخل فمها دون أن تمتزج به وتتلف مذاقه . وشيئا فشيئا لم يعد الغذاء يفيدها أو يقضى حاجة بدنها ، حتى ظن قومها ــ لفرط شحوبها ونحولها ــ أن قد انتابتها علة خفية تمتص حيويتها ، أو أن ضيفا من الجن قد سكن فى بدنها وراح يلتهم كل ما يدخل فى جوفها من طعام !

وحملوها الى طبيب بعد طبيب ، فلما يئسوا من الطب لاذوا بمن يدعون الاتصال بالجن فى عالمهم السفلى الخفى ، لكن حيل هؤلاء وأولئك ضاعت عبثا ... وصار كل يوم يمضى يقتطع فلذة من كيان الفتاة ، ويبرى ما يكسو عظامها من لحم ، الى أن أمست أشبه بهيكل .

وضاع الأمل ، ولم يبق الا أن تروضها الأيام والليالى على محنة العنوس وقسوة الحرمان ثم تهبها راحة اليأس !

* * *

لكن الأيام جاءت بأغرب ما شهدت القرية فى تاريخها كله ، والليالى تمخضت عن أعجب ما سمعت دنيا « غنية » من قبل أن يخلق الله الشاعر الذى قال :

والليـــالى من الزمان حبـــالى
مثقلات ، يلدن كل عجيبه !

ففى الوقت الذى كانت « غنيـــة » تنحدر فيه حثيثا الى منفى العوانس الكئيب على هامش الحياة ، امتدت يد القدر فجذبتها فجأة وهى على حافة المهواة ، وانطلقت بها فزفتها الى الحياة من جديد ، فى احتفال بهيج لا عهد للريف بمثله .

وكانت القرية حينـــذاك تستمرىء خمولها الفـــاتر فى موسم الركود ، فما راعها الا ضجيج الفرح يوقظ كل من فيهـــا ، ففتح النـــاس عيونهم فى دهشة من يرتاب فى يقظته ، وراحوا يحدقون فى موكب العروس كما لو كانوا يشـــهدون رؤيا عجيبة فى وادى الأحلام . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون :

ـ أهذا عرس غنية حقا !

وحق لهم أن يعجبوا وأن يستريبوا ، فما كان أحد ـ حتى غنية نفسها ـ ليجرؤ على أن يحلم لها بالزواج من فتى قاهرى أنيق عريق الصبا ناضر الشباب ، يدير مؤسسة تجارية ضخمة يملكها أبوه فى أكبر حى تجارى بالعاصمة .

حتى اذا انتقلت ضجة الفرح الى منزل العروس بالقاهرة ، عاد السكون يخيم على القرية ويلف أهلها الراقدين فى خمول ، يحاولون أن يتمثلوا مباهج ليلة الزفاف الكبرى فى المدينة ، فيرقد اليهم خيالهم كليلا مهيض الجناح .

وانثنوا يتساءلون من جديد :

ـ أى سحر جلب لغنية هذا الزوج بعد أن شارفت اليأس ؟ وأى حظ أوقع فى شبكتها الواهية ذلك الصيد الثمين ؟

واذ أعيـــاهم أن يظفروا بجواب ، اكتفوا بأن يضيفوا الأمر كله الى عجائب القدر ، ومعجزات القدرة الالهية ، ثم عادوا يتثاءبون ، وعيونهم رانية الى الماشـــية التى ترعى فى الغيطان ، وأفكارهم حائمة حول موسم الحصاد المقبل .

وانتهت قصة « غنية » ، أو هكذا خيل اليهم ٠

لكنها لم تكن بدأت بعد ، فهناك على باب القصر المنيف بالعاصمة تخلى الحظ فجأة عن العروس التى انتزعها من مهواة اليأس ، فدخلت بهو الحفل مرتبكة الخطو ، حائرة النظرات تحف بها سيدات أسرتها وقد بدون فى زينتهن الساذجة ، وحليهن الريفية الموروثة ، أشبه « بنمرة » فى حفلة تنكرية ساهرة !

وخطف الوهج بصر العروس حين استقبلتها سيدات القاهرة الأنيقات فى زيهن العصرى الخلاب ، فلم تعد تجرؤ على رفع رأسها ، بل جلست على منصة العرس مطرقة ، وهى تشعر - وان لم تفتح عينيها - بالنظرات التى حطت عليها من كل جانب ، تفحصها وتعريها وتكشف عما تطويه فى أعماقها من خوف وخجل وشعور بالنقص ٠

وراحت الهمسات تلف حولها وتدور ، ثم تصب فى أذنيها قطرات من السخرية والهزء والانكار ٠

ومات قلبها بين أضلعها ، وتعطلت مشاعرها ٠٠٠ فلم تعد تفكر الا فى شىء واحد هو أن تسكت الضجة وينتهى ذاك العذاب ٠

لكن ضجة الحفل سهرت حتى مطلع الفجر ٠

وعذاب العروس لم ينته الا ليبدأ من جديد ٠

وشهد مخدع « غنية » أتعس مشهد ، اذ وقف الشباب ينكرها ويعلن بملء تصميمه أنه لن يرضى بها زوجة ، وأبوه الى جانبه يحاول ما استطاع أن يروضه على احتمالها ريثما يتدبران الموقف ٠

ولم يكن الشاب قد رأى الفتاة قبل ليلته هذه ، فقد خطبها له أبوه من أخيها حين التقى به فى الحجاز ، وبهره ما رأى من مظاهر ثرائه ونعمته ، فلما عرف أن له شقيقة عذراء لم يتردد فى خطبتها لولده الوحيد ، لعلها تدعم بثروتها مركزه المالى الذى كان حينئذ يهتز مترنحا فى أعقاب الحرب ، ويوشك أن ينقض وينهار ، وانتظر الأب حتى عاد الى القاهرة فصحب ولده الى بيت العروس فى الريف ، حيث

أقاما هناك ثلاثة أيام ضيفين عزيزين مكرمين ، طافا خلالها بأطيان الأسرة التى تبلغ ثلثمائة فدان ، وكان همّ الأب أن يستيقن من كونها موروثة وليست مستحدثة يملكها شقيق الفتاة ، فلما اطمأن الى ذلك ، خلا بابنه حيث أجريا عملية حسابية لتقدير نصيب الفتاة من هذا الميراث ، فاذا به يزيد على خمسة وثمانين فدانا .

وخرجا من خلوتهما بدار الضيافة يطلبان شرف مصاهرة البيت الكريم ، وتمت اجراءات الخطبة والعقد على عجل . وأغلى الأب فى مهر العروس رغم متاعبه المالية ، فما كانت ألف جنيه فى حسابه ثمنا باهظا لاجتلاب الصيد الثمين .

ولم يحاول الشاب يومئذ أن يرى خطيبته ، أو لعله حاول فنهره أبوه ، فان فتاة كهذه تخطب لمالها ، وقد يجرح كرامتها - فى بيئة مثل بيئتها - أن يطلب الخاطب عرضها للفحص والمعاينة ، والأمر بعد يقتضى اللباقة والسرعة ، قبل أن ينكشف المركز المالى للأب ، وقد كان حتى تلك اللحظة يبدو متماسكا مستورا .

والآن وقد تم الزواج ووقع الصيد الثمين فى الشباك ، يريد الشاب أن يفلته ، ويهدم كل ما بنى أبوه !

انه اذن لأحمق مجنون !

ورضى الشاب أخيرا أن يمسك العروس ريثما تدع له زمام ميراثها يسترده من أخيها ويتصرف فيه على هواه .

وتمت الخطوة الأولى فى سهولة ، فما كانت « غنية » فى غشية ذهولها وسذاجة عقلها وضعف ارادتها لتملك أن تفكر أو تدبر ، بل أسلمت قيادها لزوجها دون أن تكلفه مشقة أو تجشمه أى عناء ، فوكلته رسميا فى المطالبة بحقها فى تركة أبيها ، ثم فى التصرف فيه نيابة عنها .

ومن ثم تركها الشاب وانطلق الى القرية ، كيما يفاوض أخاها فى مسألة الميراث .

وتلقاه الأخ مرحبا ، وأصغى الى حديثه فى هدوء شاذ وعلى فمه ابتسامة أعيا الشاب القاهرى فهمها ، ثم قام الأخ الى خزانته وما يفارقه هدوؤه ، وجاء بوثائق الميراث ، فاذا كل ما تملك العروس ثلاثة أفدنة لا تزيد قيراطا !

وتساءل الأخ : ما الحيلة الآن ، وهـــذه الأفدنة الثلاثة مشاعة فى المزرعة الكبيرة ؟

ثم أضاف فى تسامح وكرم : على أنى مســـتعد لشرائها بالثمن الذى يعرضه أى راغب فى الشراء !

وأحس الزوج بلطمة القدر تفقده وعيه ، فتهاوى على مقعده يصغى فى ذهول أبله الى صهره ، وقد راح يحدثه عن تاريخ الأسرة ، وكيف كد أبوه وكدح فى سبيل جمع هذه الثروة ، فلما أحس دنو أجله ، باع لولده كل ما يملك ، باستثناء ستة أفدنة تركها لابنته وزوجته ، وبذلك يحول دون عبث الأصهار بثرائه ·

ورحل عن الدنيا مطمئنا الى أن الطامعين الغرباء لن يقتحموا هذه المزرعة الغالية ويمزقوها ، بل تبقى كما هى ، ترحب بابنته اذا نبذها زوجها بعد أن يخيب طمعه فى ثرائها الموهوم !

وعاد الزوج الى القاهرة تشيعه ابتسامة اشفاق من صهره ، ودخل على عروسه وهو يتحسس أثر اللطمة القاسية التى صفعه بها القدر ، فانثنى الى المسكينة يسومها سوء العذاب وينتقم منها للخدعة الكبرى التى ضيعته وأبوه معـــه ، يغريه بمزيد من تعذيبها حتى يستنفد صبرها فتتخلى عن كل مالها من حقوق الزوجية ، وتبرئه من مؤخر صداقها ونفقة عدتها ·

فلما غلبته بصبرها واحتمالها ، جاءها بغانية من بنات الهوى ، راحت تتفنن فى العبث بها ، حتى أضاعت رشدها ··· ففرت هائمة على وجهها تضرب فى الطرقات على غير هدى ، الى أن انتهى بها المطاف الى القرية ، حيث عثروا بها مكبة على قبر أبيها تنبشه بأظافرها ، فحملوها الى الدار لتعيش فى عزلة رهيبة ، تهذى بما فعلت بها الأيام !



« الله نور السماوات والأرض »

لا أدرى لماذا تذكرتها وحدها ـ دون رفيقات الصبا جميعا ـ وانا أحث خطاى عبر الحقول فى طريقى الى دارنا !

وتمثلتها تنطلق فى هذه الربوع ، صبية حسناء ، مزهوة بلونها الأشقر الذى انفردت به عن كل بنات القرية ، كأن لم تلفحها شمس الوادى ، ولا شربت من نيله الخمرى ، ولا أكلت من قمحه الذهبى .

وكان بياض بشرتها كافيا وحده لأن يتوجها ملكة للجمال فى القرية ، وطالما وقفنا نحدق فيها مبهورات ونعجب لماذا آثرتها السماء دوننا بهذه البشرة البيضاء ، كاللبن ، وان حاولنا فى الوقت نفسه أن نتطاول عليها ونغض من حسنها بما أضفنا اليه من غباء وثقل دم ! لكن شيئا من هذا لم يحد من غرورها وزهوها ، بل ظلت تسرف فى عرض حسنها اللافت ، فتسبل قصة من شعرها الناعم على جبينها الوضاء ، وتتألق فى صقل بشرتها ، على نحو لم تألفه بنات الريف ، ولا كن بحيث يجرؤن على مثله أو أقل منه ، والقرية كلها عيون راصـــدة .

أما لماذا تركت القرية « حسنة » على هواها ، فلأنها يتيمة قامت على تربيتها أم تشتغل « مولدة » . وهى حرفة تأذن لها أن تدخل فى كل دار وأن تخرج فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار ، دون أن تسأل : لم ؟ والى أين ؟ ومن ثم اضطرت القرية الى التسليم بحق الفتاة فى قدر من التحرر والانطلاق ، تأباه على غيرها من عذارى الريف .

واعتادت امها ان تصحبها معها الى أكثر الدور التى تدعى اليها فى الأطراف البعيدة من المنطقة ، على حدود المدينة ، فتعود الصبية

فى كل مرة ، وملء جعبتها أحاديث مثيرة عن النساء ، وملء يديها هدايا جذابة ، تبهر عيوننا التى لم تشهد مثلها من قبل . وكان من بين ما جاءت به ، مشط مرصع بفصوص من الماس على هيئة تاج ، والوان من المخرمات وقطع الزينة لحلية الثياب .

وطالما ضاق « الشيخ مرسى : فقيه الكتاب » بمظهرها البراق وتأنقها المسرف ، وألح عليها بعصاه كى تكف عما سماه تزينا فاضحا ، حتى انتهى الأمر بطردها من الكتاب ، وحرمانها من التعليم ، وهو حرمان لم يبد على « حسنة » أنها اكترثت به ، بل لعلها رأت فيه راحة من اجهاد الدرس ، ونجاة من الزجر والتأنيب ، وتوفيرا لوقتها الذى كانت تضيعه فيما يشق عليها من حفظ القرآن وتسميعه ، وهكذا تحررت من القيد الوحيد الذى كان يغلها ، وانصرفت الى العناية بحسنها وزينتها ، غير ملقية بالا الى لعنة « الشيخ الفقيه » ولا خائفة مما انذرها به من خسران وضياع ، بعد أن ضيعت الفرصة الذهبية لحفظ كتاب الله جل فى علاه .

ومن تلك اللحظة تجنبناها ، اذ كان يخيل الينا أن اللعنة سوف تحيق كذلك بمن يقترب منها ، وأن النور الذى يملأ صدورنا الحافظة لآيات القرآن ، سوف ينطفىء اذا دنونا من تلك التى نبذت الكتاب الكريم ظهريا ، واستبدلت به بضاعة دنيوية خاسرة !

وحاولت الفتاة أول الأمر أن تواجه موقفنا منها فى شىء من التحدى والعناد ، وأن تسخر بمخاوفنا التى القاها فى روعنا شيخ مخرف فى السبعين من عمره ، قروى ساذج امضى حياته بين الكتاب والمسجد سجين الأوهام .

لكن شجاعتها خانتها بعد أن رأت اصرارنا على تجنبها ، فتسللت ذات مساء من القرية ثم لم تعد ...

وقال بعض الذين لمحوها عندئذ ، انها كانت دامعة العينين مرتجفة الأوصال .

* * *

تلك الفتاة التى ذكرتها وحدها فى ذاك المساء الساجى ، وأنا أدلف الى دارنا القائم فى أقصى الشمال ..

والتفت الى أختى التى تقيم فى القرية فسألتها :

ـ ما فعلت الأيام بحسنة ؟

فعجبت لسؤالى وقالت : ما الذى ذكرك بها الآن ؟ ..

أجبت بعد تأمل قليل :

ـ فى الحق لا أدرى : لعل الذى ذكرنى بها انى أجتاز الآن الطريق الذى مرت به المسكينة فى مثل هذه الساعة هاربة منا ، أو لعلنى ذكرتها حين لمحت مئذنة المسجد من بعيد : فتمثلت «الشيخ مرسى» وهو يلح فى اضطهادها ويلاحقها باللعنة أو لعلى ذكرتها بهذا الغدير الذى كانت تضحك علينا ونحن نغسل بمائه العكر وجوهنا وأيدينا وأرجلنا ، حين كانت هى لا ترضى بغير الماء الصافى والصابون الغالى ، أو لعل . ولعل ... فهلا حدثتنى عما فعلت بها الأيام !

فصمتت أختى برهة ، ثم قالت وعيناها الى السماء :

ـ مسكينة ! لقد وهمت أن ابتعادها عن القرية ينجيها من اللعنة التى حاقت بها ، ولم تدر أن القدر يتربص بها فى كل خطوة ، وأن السماء تترصدها أنى توجهت ، وان اللعنة تتبعها حيثما أقامت ، فى القرية أو المدينة ، فى السهل أو الجبل ، فى الكهف أو الغاب .

فعقبت قائلة :

ـ حق ما تذكرين ، لكنك لم تجيبى بعد عن سؤالى .

فكان ردها : ذاك حديث يطول ، واوثر أن تسمعيه منها حين ترينها بعينيك ، فهى مقيمة هنا منذ عامين لا تبرح مكانها !

فأجفلت على الرغم منى ، أراها ؟ وأسمع حديثها ؟

لقد خيل الى أننى أرجع خمسة وعشرين عاما الى وراء ، فاذا بى الفتاة الريفية الساذجة التى كنتها ، تشفق من مجرد الاقتراب من « حسنة » وتخشى أن ينطفىء نور القرآن فى صدرها ، اذا ما جرؤت على أن تتحدث اليها .

وادركت أختى ما يساورنى فبادرتنى بقولها :

ــ لا بأس عليك من رؤيتها ، فقد كفرت عن خطئها ، وارتدت الى حظيرة الرحمن !

* * *

وأصررت على أن أراها فى أمسيتنا تلك ، فانحرفت بى شقيقتى عن الطريق الموصلة الى دارنا ، واتجهت شرقا تسلك دروبا ضيقة ملتوية ، حتى بلغت ضريح « سيدى الأربعين » من أقصر الطرق .

ودخلنا ، فاستقبلتنا هناك امرأة زرية المظهر ، خشنة الثياب ، لم البث أن أدركت أنها عمياء !

وهمست أختى : هذه هى !

قلت على الفور :

ــ كلا فما فيها من « حسنة » اى ملمح ولا بينهما أى شبه !

وعدت أحدق فى المسكينة : أهذه الممسوخة الشوهاء ، كانت يوما ما ملكة الجمال فى ريفنا ؟! اين شعرها الذهبى الذى طالما ضمخته بالعطر وسبسبته على جبينها الزاهى ؟ واين بشرتها الناصعة التى طالما ازدهت بها وباهت ؟ بل اين اناقتها المسرفة ، ودلالها المفرط ، وحسنها اللافت ؟

لا أثر : أى أثر !

ولم املك أن صحت : كلا ! ليست هذه « حسنة » بحال ...

وبلغ صوتى مسمعها ، ولشد ما دهشت حين رايت وجهها المغبر يشرق بابتسامة راضية ، ثم اذا بها تمد يدها الخشنة تتلمس يدى، فى حركة ضريرة عمياء ..

وقالت فى صوت هادىء النبرات :

ـ الحمد لله ! الآن اطمأن قلبى اذ أنكرتنى رفيقة الصبا ولم تلمح فى كيانى أثرا من تلك التى كنتها ! ذلك هو ماكنت أبغى ، بل ذلك هو ما سعيت اليه جهدى منذ ألهمنى الله أنه لن يغفر لى ذنبى حتى أمسخ مخلوقة أخرى ينكرها أهلها وأصحابها ، ويعييهم أن يجدوا فيها بعد طول التأمل ، أثرا من تلك الحسناء المفتونة التى جنى عليها حسنها .

وفجأة ألفيتها تخر لله ساجدة حتى اذا أتمت صلاتها عادت الى تقول :

ـ عبثا حاولت أن أفر من اللعنة ! كان صوت الشيخ مرسى يلاحقنى فى عناد واصرار ، وكلما جاهدت فى الافلات منه ازداد رهبة وعمقا وبخاصة حين يجن الليل وأخلو الى نفسى فى الظلام .

حتى خفت على نفسى الجنون فقررت أن أهرب منها ، وحرصت على ألا اخلو بها مهما يكلفنى الفرار ، كما صممت على ألا أقيم فى الظلام لحظة واحدة ، كيلا أتيح لشبح الشيخ المطارد أن ينفرد بى وسط تهاويل الظلمة .

وهكذا عشت فى ملاهى الليل الصاخبة ، اشتغل راقصة من مغرب الشمس الى مطلع الفجر ، ثم أرتمى على فراشى منهوكة الجسد عشواء البصر ، حيث تتسلمنى الأحلام الرهيبة والرؤى المفزعة .

ولم يبق أمامى الا أن أفر من النوم ! ولمحنى رجل من رواد المرقص وأنا أقف فى آخر الليل ، حائرة ضائعة ، فدعانى الى مسكنه، وتبعته معطلة الحواس مشلولة الارادة ، لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو أن أفر من الوحدة ، والظلام ، والنوم !

لكنى لم أكد أدنو من بيت الرجل حتى لمحت شبح الشيخ مرسى يقف بالباب ، فأفلت مذعورة ، ورحت أجرى فى الطرقات هائمة ضالة شريدة .

وساقتنى قدماى ، على غير ارادة منى ، الى المرقص ثانية ، فاذا بى أفاجأ بزميلة لى ، تسألنى : كيف جرؤت على أن أسرق صاحبها ، وقبل أن أجيب ، قذفت وجهى بماء النار .

وهتف بى هاتف وأنا أرتمى على الأرض وأتلوى صارخة متخبطة:

هو ذاك الظلام الأبدى ياعمياء فأين المفر !

كلا ، لا مفر !

وفى المستشفى رقدت شهرين وحيدة منبوذة ، معصوبة العينين! وكنت موقنة أن الشيخ المطارد لن يكف عنى الا اذا انتحرت أو جننت !

لكنى ، لشدة دهشتى ، أحسست شعاعا من النور يومض خلال الظلمات المحيطة بى ، وميزت فى صوت الهاتف نبرة رفق ورحمة .

هنالك ألقى فى روعى أن باب الله لن يوصد أمامى ، اذا تخلصت من كل ملامحى الأولى ووقفت أمام الباب الطاهر ذليلة تائبة .

وخرجت من المستشفى وقد اعتزمت أمرا :

نزعت عنى ثياب المدنية ، وارتديت هذا الثوب الخشن الرخيص ، والتمست من قادنى الى هذا الضريح ، حافية القدمين مشوهة الوجه ، زرية الهيئة .

وحسبت أن لا يعرفنى أحد ، لكن الشيخ مرسى سمى الى هنا غداة جئت ، فتلا فى أذنى قوله تعالى :

«قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله . ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم » .

ثم دعا لى ، وخرج الى أهل القرية يأمرهم أن يترفقوا بالعمياء التائبة ، التى اعتصمت ببيت الله ، فما عاد لأحد عليها من سبيل ! » .

* * *

وجرؤت على أن أسألها :

ـ افما يعاودك حنين الى النور ؟ ..

فهتفت بكل جوارحها :

ـ كلا ، فما كان الا الضوء الخاسر يعمى القلوب والأبصار ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

ولما ودعتها ومضيت ، تناهى الى سمعى فى سكون الليل ، صوت من المعبد يتلو فى خشوع :

« الله نور السماوات والأرض »

ناعسة



« وودعتها ومضيت ألتمس الطريق الى دارنا ، وبى خوف من الغد حين أرجع الى المدينة ، فأرى « ناعسة » فى كل فتاة من الريف هناك ! » .

غبت عن قريتنا اعواما خمسة لم اجرؤ فيها قط على دخول دارنا بعد رحيل أمى ، وان بقيت على الأيام والليالى أحوم بروحى حول تلك الربوع المهجورة التى كانت لصبانا مهدا وملعبا .

وخاننى الصبر يوما فتسللت الى القرية أحاول أن اعيش لحظة فى الأمس الذى ولى وراح . وبلغتها فى غبش المســاء ، فى تلك الساعة التى تمسك القرية فيها أنفاسها فى انتظار لقمة العشاء ، ويغمر الكون صمت عميق لا يكاد يسمع فيه سوى نباح كلب ضال ، أو صراخ طفل أعياه الانتظار .

وكان بصيص من الضوء المختنق بالدخان ، يلوح لى على البعد منبعثا من المواقد فى أفنية الدور المكشوفة ، وعلى الأفق النائى كانت قطعة شاردة ممزقة من الشفق الأحمر تذوب فى العتمة رويدا رويدا .

وعند المدخل القبلى للقرية ، ثقلت خطواتى حتى ما عدت أستطيع نقل قدمى الا بجهد ومشقة ، فاتكأت على جذع شجرة من اشجار الجميز الضخمة المعمرة ، أرنو فى خشوع وأسى الى المعبر الضيق الذى يفصل الطريق العام عن منطقة الموتى ، وقد تراءت لى فوقه أطياف من أعرف من الذين عبروه مرة محمولين على الأكتاف ، ثم لم يثوبوا بعدها أبدا .

واستروحت للذكرى والعبرة ، فلم أكد أشعر بالظلمة وهى تتكاثف من حولى ، بل لم أكد أحس وحشة او انقباضا وأنا واقفة بمفردى على حدود مدينة الموتى ، أرقب مواكب الراحلين التى تتابعت فى غير انقطاع ، فتلقفتها هناك حفرة مظلمة كأنها فم وحش خرافى هائل يطوى الملايين طيا ، دون ان يشبع او يقنع .

لقد صغرت الدنيا فى عينى اذ ذاك ، وتضاءلت البشرية بكل غرورها وكبريائها وخوفها ومكابرتها ، وجمدت مشاعرها فى كيانى فكأنما عدت روحا هائمة لا تنتمى الى هذه البشرية بسبب .

وفجـــأة خيـــل الىّ اننى أرى طيفـــا ينفلت من الركب السارى فلا يكاد يجتاز المعبر الضيق حتى يتجه الى القرية فى خطوات متعثرة وهو يتلفت ذات اليمين وذات اليسار ، ولم أشك فى انها رؤيا عابرة نقلتنى من عالم الحس المشهود الى متاهة الأحلام وراء منطقة الوعى واليقظة ، حيث تضطرب صـــنوف شتى من أوهام مشخصة تمثل لنا أرواح الموتى وهى تنطلق اذا جن الليل ، لتلم بمن لا يزال فى دنيا الأحياء من أعزاء ، فتحوم حول ديارهم وتهوم على مضاجعهم ، ثم تئوب من مسراها قبل أن يدركها الفجر ويكشفها نوره .

كذلك خيل الى ، حتى التفت الطيف نحوى مرة ، فوقف غير بعيد منى يلهث مذعورا . واذ ذاك فقط تبينت أمامى مخلوقة حية من البشر توشك أن تتهاوى من ذعر واعياء ، كأنها كانت مسيرة بقوة طارئة مستعارة زايلتها بمجرد أن وقعت عيناها علىّ ...

واذ دنوت منها أريد أن أعينها على أمرها ، ميزت فيها « الخالة شلبية » وهى أرملة عجوز طيبة ، تسكن قريبا من دارنا .

وسألتها عما بها ، فما راعنى الا أن قالت فى ضراعة :

ـ ورحمة امك الغالية ، تسترين على .

قلت وأنا لا أفهم مقصدها :

ـ ولكنا ما علمنا عليك سوءا قط ، فمم تخافين ؟

همست وهى تنتفض :

ـ لا تقولى لأحد أنك رأيتنى هنا ، فان زيارتى للمقابر تخزينى عندهـم .

فقدمت لها كتفى تتكىء عليها ، وسرت بها الى دارها وأنا أؤكد لها الوعد الذى طلبت ، وان بدا لى الأمر كله لغزا من الألغاز .

وحين هممت بتركها ، تذكرت أن لها حفيدة حلوة نزحت الى المدينة منذ أعوام . وكنت قد تعودت من « الخالة شلبية » أن تسألنى كلما رأتنى فى القرية ، ان كنت قابلت « ناعسة » بمصر ... فأضحك لسؤالها وأحاول عبثا أن أفهمها أن (مصر) دنيا بأسرها ، يسكنها ملايين وملايين ، ويتوه فيها ألوف من مثل « ناعسة » .

تذكرت هذا ، فرابنى من أمر الخالة شلبية أنها ـ لأول مرة منذ عرفتها ـ لم تسألنى عن « ناعسة » .

وكنت أحب الفتاة وأعطف على صباها اليتيم وملاحتها المرهقة بالفقر والحرمان ، وأرثى لحادثة ألمت بها وهى تتفتح للحياة فكسرت خاطرها : مات أبواها وهى تدرج فى عامها الخامس وتركاها لرعاية هذه الجدة العجوز بغير أهل ولا مال . وكان الظن ألا تعمر الجدة طويلا ، لكنها ـ على غير ما توقعنا ـ تشبثت بالحياة من أجل هذه الصغيرة اليتيمة ، وكل مناها ألا تموت قبل أن تطمئن عليها وتسلمها الى زوج طيب ابن حلال يحميها من أحداث الدهر .

وكنا جميعا نعرف أن « ناعسة » مسماة لشاب فقير تصله بها قرابة بعيدة ، فما كان للجدة حديث سوى هذا الزواج المنتظر ، وقد عجلت بقراءة الفاتحة ولما تتجاوز حفيدتها عامها الثانى عشر ، وراحت تملأ لياليها بسمر متشابه ، يعدها بالأمن والهناءة والاستقرار فى كنف خطيبها ابن الحلال الطيب المكافح .

وأحبت « ناعسة » فتاها وهى لا تعرف من الحب الا أنه التفكير الدائب فيمن سيكون شريك حياتها ، والانتظار المتلهف لليوم الموعود الذى تزف فيه عروسا للرجل الوحيد الذى دخل عالمها الموحش القلق ، فبعث فيه شعاعا من الرجاء .

ولكن الفتى ذهب مرة الى المدينة ، فضل طريق العودة الى القرية والى الفتاة التى تنتظره هناك .

وسمعنا أنه تزوج من فتاة حضرية لعوب ، تشتغل « تمرجية » معه فى مستشفى من مستشفيات المدينة .

ومن ذلك الحين لم نر « ناعسة » الا واجمة مكتئبة ، حتى خافت عليها جدتها فرضيت آخر الأمر أن تسلمها آلى قريبة لها متزوجة من موظف فى مصر ، لعلها تتسلى أو تسلو .

وقد شجع الجدة على هذا ، أنها كانت تشعر بدنو اجلها ، فخافت على الصغيرة بعدها من الضياع .

وكانت قريبتها تلك عقيما شارفت سن اليأس ، وطالما الحت على العجوز أن تدع لها « ناعسة » كى ترعاها وتتخذها بنتا . ولكن الجدة لم تكد تسلم صغيرتها حتى ساورها قلق غامض وأحست وحشة أليمة لفراقها ، وقد حاولت ما استطاعت أن تتصبر وأن تذود تلك الهواجس التى تعذبها ، معللة نفسها بأن الله قد أراد بالصبية خيرا حين هيأ لها كافلا وأما .

وألفنا بعد ذلك أن نرى « الخالة شلبية » تتلقف أنباء العائدين منا الى القرية ، فتقف ببابها تستجدى كل عابر منهم ، أخبار العزيزة « ناعسة » وتستحلفهم بالله ان يحدثوها كيف حالها فى بلاد الغربة .

وكان هذا آخر عهدى بها قبل أن اغيب عن القرية ، حتى رأيتها

فى تلك الأمسية الحزينة تنفلت من المقابر ، فرابنى منها انهـا لم تسألنى سؤالها المألوف عن « ناعسة » .

ترى هل مس الصبية سوء ؟

مر هذا الخاطر ببالى فلم أقاوم رغبتى فى الاطمئنان عليها ، وقلت اسأل « شلبية » :

ـ كيف حال ناعسة ياخالة ؟

فروعنى أن أشهدها ترتد عنى مجفلة ، وهى تتساءل :

ـ كأنك لا تعرفين ما جرى لها ؟

أجبت فى دهشة :

ـ لكنك تعلمين ياخاله أن قدمى لم تطأ القرية منذ ماتت أمى .

فهزت رأسها مستريبة وهى تقول :

ـ أجل أعلم ، ولكنك سمعت قصتها من أهل مصر جميعا ..

فلم ادر بم اجيب ، اذ كنت أعلم أن من العبث اقنـاعها بأن (أهل مصر) لم يشعروا بوجود فتاتها وآلاف مثلها ، وان أحدنا هناك لايدرى شيئا عن شئون جاره المقيم معه فى منزل واحد .

واستطردت هى قائلة دون أن تنتظر منى جوابا :

« وقد حدثوك عنها ، عن المسكينة التى خرجت من القـرية عذراء طاهرة غريرة ساذجة ، فلم يمض عام عليها هناك حتى لفظتها المدينة وردتها الينا امرأة ضائعة تتعثر فى اثمها .

« وهنا فى القرية ، ستسمعين القوم يلاحقونها باللعنات حتى بعد أن صارت بين يدى خالقها ، وسترينهم يرجمون قبرها المنبوذ بالحجارة ، لأنه أوى جثة خاطئة .

« ولن تجدى سواى من يرحم ذلها ويبكى مصابها . لن تجدى

سواى من يقسم لك أنها ما أثمت الا لأنها تجهل الاثم ، ولا زلت الا لأن طهرها كان لا يعرف معنى الزلل .

« ولو نطقت هذه الجدران المتحجرة الجامدة ، لشهدت معى بما سمعت من حديث الضحية التعسة ، ولو أصغى الناس لهذا الذى سمعت ، لرجمونى بالحجارة بدلا منها ، فبلسانى هذا علمتها أن تحب خاطبها الغادر فعرضتها للصدمة البشعة التى حطمت قلبها الغض وسممت صباها الحلو . وبيدى هذه أسلمتها الى امرأة جاحدة عقيم ، قلبها من صخر وكبدها من حجارة وعواطفها من ثلج ، تفننت فى القسوة عليها فما كادت الصغيرة تحس بادرة من عطف الزوج حتى ظنت ـ لفرط سذاجتها وطهرها ـ أنه الملاك الكريم ، بعثه الله ليحميها من قسوة زوجته ، ريثما تعود الى مأمنها فى حضن جدتها .

« وما زال بها يستدرجها فى عطف وخبث حتى أفضت اليه بما تجد من قهر لهجر خطيبها : فراح الشيطان يعتذر للهاجر بما تعرض له من اغراء لا يقاوم ، فان لفتيات الحضر فى اجتذاب الرجال فنونا واساليب ليست لبنات الريف ، ولو قدر لناعسة أن تعرف بعض هذه الفنون لاستردت فتاها الهاجر فى غير مشقة .

« وما كادت الطفلة المسكينة تتلقى الدرس الأول حتى أيقنت بغريزتها أنها خسرت كل شىء ...

« وآبت الىّ بعارها ، فأقامت بهذا المكان لم تبرحه الا الى القبر .

« وما سمعتها قط باكية ولا شاكية ، وانما تحملت عذابها ومحنتها فى صمت فاجع ، وعاشت أشبه بجثة .

« وحين ماتت ، خرجت بها فى ليلة كهذه فواريتها التراب تحت جنح الظلام ، واضجعتها فى قبر منبوذ ، ثم عدت أستغفر الله لى ولها .

« أم ترين أن الله لا يغفر لأمثالنا ؟ » .

فأمسكت عبرتى وأنا أتلو قوله تعالى :

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . فكأنما نزلت كلمات الله على المسكينة بردا وسلاما . . .

وتشبثت بى تسألنى فى توسل :

ـ تهبين هذه الآيات الكريمة لروح صغيرتى الضائعة ؟

قلت وقلبى يتمزق :

ـ أجل ياخالة ، وأقرأ معها الفاتحة على روح ناعسة . . .

فلم تصدق أذنيها حتى أعدت عليها ما قلت ، ثم رفعت وجهى الى السماء وتلوت سورة الفاتحة .

وودعتها ومضيت أتلمس الطريق الى دارنا ، وبى خوف من الغد حين أرجع الى المدينة فأرى (ناعسة) فى كل فتاة من الريف هناك .

محتويات الكتاب

١ ـ سيد العزبة

صحيفة

الكتاب الأول : حديث الخاطئة ٧

الكتاب الثانى : سيد الأرض ١٩

الكتاب الثالث : ذهبت ولم تعد ٤٩

الكتاب الرابع : الخاطئة ٦٣

الكتاب الخامس : حديث الزمن ٧٣

٢ ـ قصص فى القرية

الذئاب ٨٧

عالية ٩٥

الوارثة ١٠٥

تحت الأنقاض ١١٥

بنت العمدة ١٢٣

غنية ١٣١

عمياء ١٣٩

ناعسة ١٤٩

الكتاب الفضي

سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

صدر منها:

البحث عن جسد	: للأستاذ يوسف السباعى
قلوب خالية	: للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى
العش الهادىء	: للأستاذ توفيق الحكيم
امرأة بلا مقابل	: للأستاذ اسماعيل الحبروك
ام العروسة	: للأستاذ عبد الحميد جوده السحار
المعذبون فى الأرض	: للدكتور طه حسين
الهدف الكبير	: للسيدة أمينة السعيد
أرض الخطايا	: للأستاذ أمين يوسف غراب
اللحظة الحرجة	: للأستاذ يوسف أدريس
أشياء للذكرى	: للأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله
امرأة خاطئة	: للدكتورة بنت الشاطىء